حديث القرآن عن وسائل فهمه
دراسة موضوعية

د. محمد ولد سيدي عبد القادر*
الأستاذ المساعد بقسم القراءات بجامعة الطائف

* من مواليد مدينة كيفة بدولة موريتانيا عام ١٩٧٠م.
* نال شهادة الماجستير في التفسير من كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية عام ١٤١٧ بأطروحته: "الفيض العميم في معنى القرآن العظيم: لأحمد بن عبد المنعم الدمنهوري تحقيق ودراسة"، ثم نال منها شهادة الدكتوراه في التفسير بأطروحته: "ترجيحات أبي بكر بن العربي في التفسير من خلال كتابه أحكام القرآن : عرض ودراسة من أول سورة الفاتحة إلى نهاية سورة النساء" .
* مجاز في القراءات العشر، وله مشاركات في مؤتمرات ودورات قرآنية، ومقالات منشورة في مجلات قرآنية ، وصحف يومية، ومواقع إلكترونية.
* البريد الإلكتروني: am100025@gmail.com

الملخص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا بحث بعنوان: **حديث القرآن الكريم عن وسائل فهمه (دراسة موضوعية)** ، تناولت فيه وسائل فهم القرآن الكريم من خلال حديث القرآن الكريم عن تلك الوسائل، وقد قسمته إلى مقدمة، وفصلين، وخاتمة.

تناولت في المقدمة الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذا البحث ومنهجي فيه.

وتناولت في الفصل الأول: الوسائل الحسية، وذلك في عشرة مباحث، تحدثت فيها عن سلامة الحواس، وإعمال الذهن، والبعد عن الشواغل، ومعرفة اللغة العربية، ومعرفة واقع البشرية وقت نزول القرآن، والرجوع إلى القرآن الكريم وصحيح السنة، والتشجيع بالحوافز المادية والمعنوية، التدرج ،والعمل بالقرآن.

وتناولت في الفصل الثاني الوسائل المعنوية في خمسة مباحث ، ذكرت فيها : الإيمان ، والتقوى ، واستشعار عظمة القرآن ، وشموله ، واستشعار خصوصية الخطاب به عند تلاوته وتفهمه، مبرزاً حديث القرآن عن هذه الوسائل وأثرها في فهمه ، مبينًا وجه دلالة الآيات على ذلك .

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج ، والتوصيات.

المــقدمــة

الحمد لله الذي نزل على عبده الفرقان، والصلاة والسلام على من كــان خلقه القرآن، نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد :

فإن الله – عز وجل– قد شرف هذه الأمة وكرمها بأن أرسل إليها أفــضل رسله وأنزل عليها أشرف كتبه وأجمعهــا فقــال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[المائدة: ٤٨]، وجعل هذا الكتاب مصدر عزها وشرفها ومنعتها وكرامتها فقــال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وصان هذا الكتاب الذي هو مصدر عزها وكرامتها من أيد العابثين والمحرفين والمــأجورين فقــال:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وأمرها بتدبر هذا الكتاب والاهتداء بهديه فقــال:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وضمن الهداية والسعادة للمتمسك به فقال:﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه: ١٢٣]، وجعل الذلــة والــصغار والهوان وشقاوة الدارين في الإعراض عنه فقــال : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٤ – ١٢٧].

فلا سعادة في الدارين إلا باتباعه، ولا اتباع له إلا بتدبّره وفهمه، لذا كــان فهمه من آكد الواجبات التي ينبغي تحصيلها، والسعي في كل وســيلة توصــل إليها، والابتعاد عن كل مانع يحول دونها.

وقد اعتنى كثير ممن كتبوا عن التفسير وعلومه ببيان شروط المفسر وآدابه وبالغ بعضهم في تلك الشروط حتى أصبح تحصيلها متعذراً؛ فاشترطوا للمفسر شروط المجتهد، بل تعدى بعضهم ذلك؛ فذكر شروطاً يفني الذكي المعمر حياته ما أتقنها ولا عشر معشارها؛ إذ اشترطوا للمفسر إتقان علوم الإسلام كلها فاشترطوا له إتقان اللغة بجميع علومها من غريب، ونحو، وصرف، وبلاغة، وأدب، واشترطوا له إتقان الفقه ومذاهبه وأصوله، والقرآن وقراءاته وعلومه، والسنة النبوية صحيحها وضعيفها، وناسخها ومنسوخها ، وعلومها كلها، بل اشترطوا له أن يعلم منطق اليونان، وتاريخ الفرس والرومان، وتحريف بني إسرائيل، والقائمة تطول، وقد عدها السيوطي أربعة عشر علماً[(١)]، وأوصلها أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري إلى نحو ثلاثين علما[(٢)]، ولقد هالني الأمر وأفزعني وأنا أقرأ في القرآن الكريم أنه كتاب مبين، وأنه ميسر لمن أراد حفظه وفهمه: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ [القمر: ١٧]، وأعلم أن خير القرون كانوا أكثر له فهماً ولم يشترطوا لفهمه وتفسيره هذه العلوم ولا تعلموها من أجل فهمه، فقصدت القرآن الكريم أبحث فيه عن وسائل فهمه فكان هذا البحث الذي جعلته دراسة

---

(١) قال السيوطي – بعد أن ذكر قول من منع التفسير بالرأي مطلقًا-: " ومنهم من قال يجوز تفسيره لمن كان جامعا للعلوم التي يحتاج المفسر إليها ، وهي خمسة عشر علما"، ثم أخذ السيوطي في تعدادها على التفصيل وبشرط الاستيعاب (انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/١٨٠-١٨٢).

(٢) انظر: الفيض العميم في معنى القرآن العظيم للعلامة أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري (ص١٤٢ بتحقيقي لنيل شهادة الماجستير في التفسير من كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة).

موضوعية للآيات القرآنية التي تناولت الحديث عن وسائل فهم والقرآن مستعيناً بالله ثم بأقوال المفسرين في تلك الآيات موضوع الدراسة، مستبعداً ما لا تـــشير إليه الآيات من وسائل .

أسباب اختيار الموضوع :

لقد أومأت فيما تقدم من هذه المقدمة إلى بعض تلك الأســباب بـــشكل ضمني وأزيد هنا الأسباب الآتية:

١- أهمية هذا الموضوع لتعلقه بفهم كتاب الله الذي تعبدنا بتلاوته وفهمه والعمل به .

٢- أنني لم أجد من أفرد هذا الموضوع بالكتابة والبيان والإيضاح، بل غاية ما وجدته فيه إشارات لبعض الأئمة عند بعض هذه الآيات موضوع الدراســة، وهو موضوع حري بالإفراد والبيان والإيضاح.

٣- بيان أن القرآن الكريم كشف عن أسس وسائل فهمه، وهي وسائل لا يتأتى فهمه بدونها.

٤- أن ما ذكره المفسرون ومن كتبوا في شروط المفسر من شروط اعتبروها وسائل لفهم القرآن الكريم قد ابتعدت - في غالبها - عن مدلول ما دل عليـــه القرآن الكريم من وسائل فكانت هذه الدراسة استدلالاً لبعض تلك الشروط.

٥- أن شروط المفسر التي ذكرها بعض العلماء قد دخلها من المبالغة مـــا كان سبباً في عزوف كثير من طلبة العلم عن تدبر القرآن وتفهمه؛ لربطهم بين تحصيل تلك الشروط وفهم القرآن وتفسيره، فجاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على وسائل فهم القرآن الكريم التي تحدث عنها القرآن الكريم، بعيداً عن تلـــك الشروط التي هي شروط للمفسر لا شك أنها دخلها من المبالغة ما كان سبباً في

ذلك العزوف، وإن كان أصحابها إنما قصدوا بها تعظيم القرآن الكريم وصونه عن خوض كل خائض لم يتأهل للنظر فيه .

منهجي في هذا البحث :

لقد اتبعت في هذا البحث المنهج الآتي :

١- اعتمدت في هذا البحث على القرآن الكريم ، فاقتصرت على الوسائل المذكورة في القرآن الكريم بصريح العبارة أو جلي الإشارة.

٢- رجعت في مادة هذا البحث إلى كتب التفسير عند تفسير الآيات موضوع الدراسة.

٣- اقتصرت في تفسير الآية على ما يفهم منه معناها مركزاً على موضوع الاستدلال منها، واستبعدت الاستطراد في خلاف المفسرين إن وجد.

٤- ربما اقتصرت في تفسير الآية على موضع الاستدلال منها، وربما فسرتها تفسيراً مجملاً ناقلاً في ذلك عن أحد المفسرين المعتبرين.

٥- ربما اكتفيت ببيان معنى الآية من غير أن أنقل ذلك عن أحد المفسرين لظهور معناها، أو لكوني لم أجد من ذكر دلالتها على الوسيلة التي ذكرتها دليلاً لها، على أن الفهم في كتاب الله عز وجل منحة إلهية لا يأخذ المتقدم منها ما هو مذخور للمتأخر.

خطة البحث :

لقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة، وفصلين، وخاتمة، وفهرسين، وفيما يلي تفصيل الخطة:

المقدمة وفيها :

أ – أسباب اختيار هذا الموضوع .

ب– خطة البحث.

ج– المنهجية التي اتبعتها في كتابة هذا البحث.

الفصل الأول: الوسائل الحسية – ومكانتها في فهم القرآن الكريم– : وفيه عشرة مباحث :

المبحث الأول: سلامة أدوات الفهم والمعرفة، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: سلامة حاسة السمع (الأذن)

المطلب الثاني : سلامة حاسة النظر (العين)

المطلب الثالث : سلامة حاسة العقل (القلب)

المبحث الثاني: بذل أقصى الطاقة في إعمال الذهن (العصف الذهني)، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : التفكر

المطلب الثاني : التذكر

المطلب الثالث : التدبر

المبحث الثالث : البعد عن الشواغل وتحري أوقات الهدوء

المبحث الرابع : إتقان اللغة العربية

المبحث الخامس: معرفة واقع البشرية وقت نزول القرآن

المبحث السادس: الرجوع إلى القرآن الكريم (تفسير القرآن بالقرآن)

المبحث السابع : الرجوع إلى صحيح السنة

البحث الثامن: التشجيع بالحوافز المادية والمعنوية

المبحث التاسع : التدرج

المبحث العاشر: العمل بالقرآن

الفصل الثاني: الوسائل المعنوية ، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : الإيمان

المبحث الثاني : التقوى

المبحث الثالث: استشعار عظمة الخطاب

المبحث الرابع: استشعار خصوصية الخطاب

المبحث الخامس : استشعار شمول القرآن

الخاتـــمة : وفيها ذكرت خلاصة البحث.

الفهارس: وقد ذكرت منها فهرسين: فهرس للمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات.

الفصل الأول :

الوسائل الحسية : وفيه عشرة مباحث:

لقد ذكر الله عز وجل وسائل لفهم كتابه، منها ما هو حسي مادي، وما هو معنوي روحي، وفي هذا الفصل ذكرت الوسائل المعنوية، وقسمت القول فيها إلى المباحث الآتية :

المبحث الأول: ســلامة أدوات الفهــم والمعرفة:

إن الله عز وجل قد خلق الإنسان غفلا من الفهم والمعرفة ولكنه زوده بالأدوات التي تمكنه من التعلم والفهم قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]؛ فقد دلت هذه الآية على أن الله عز وجل خلق الإنسان لا يعلم شيئاً، ولكنه ركب فيه الأدوات التي بها يكتسب العلم والمعرفة(١)، وبقدر استخدامه لها يكون حظه من العلم والمعرفة، وأول تلك العلوم والمعارف التي ينبغي عليه معرفتها علوم الشرع التي بها يعبد من أنعم عليه بالإيجاد ووسائل العلم والمعرفة؛ ولبيان مكانة هذه الأدوات في فهم كتاب الله عز وجل قسمت القول فيها إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول :سلامة حاسة السمع (الأذن):

السمع من الأشياء المعروفة لدى العامة والخاصة،فهو ضد الصمم؛ فلــو قلت لأحد فلان لا يسمع لفهم من ذلك أنه أصم أو لا يمتثل كفعل مــن لا

---

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٥٢/١٤، الكشاف للزمخشري ٦٢٤/٢،

يسمع، وأداة السمع الأذن، قال صاحب القاموس : « السمع حس الأذن، أو الأذن وما وقر فيها »[1].

وأنا في هذا الموضع لن أتحدث عن كيفية السمع وما أودع الله عز وجل في آلته من عجائب خلقه فموضع ذلك علم التشريح، وإنما الذي يهمني في هذا الباب هو كيفية الاستفادة من هذه الحاسة في فهم كتاب الله عز وجل.

وبعد تتبعي لآيات الاستماع في القرآن الكريم تبين لي أن للاستماع شروطاً، وضوابط، لا بد من توافرها؛ ليكون استماعاً يحصل به العلم والفهم والمعرفة، وسأذكر تلك الشروط مراعياً في ذكرها الإيجاز والاختصار؛ إذ الغرض عندي من ذكرها التنبيه على أهميتها ووضعها في الاعتبار عند الاستماع لكتاب الله عز وجل، مقتصراً على بيان موضع الشاهد من الآية دون الاستطراد في الحديث عن السياق ما لم تكن له علاقة مباشرة بدور الاستماع في الفهم، وتلك الشروط هي :

الشرط الأول : سلامة الحاسة (الأذن) :

وهذا الشرط مع كونه من البدهي إذ لا يقال للأصم اسمع إلا على وجه الاستهزاء والسخرية، وذلك ما ينزه عنه كلام العقلاء فضلاً عن كلام الحكيم الخبير، فإن القرآن الكريم قد تحدث عنه وجعله من العوائق التي تعيق الأذن عن السمع كالصمم فقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ**﴾[الأنبياء: ٤٥]، والمعنى إنما أحذركم وأخوفكم بالقرآن

---

(١) القاموس المحيط للفيروزابادي ٤١/٣.

ولكن من أصم الله سمعه وختم على قلبه، وطمس بصيرته فلا ينفعه سماع الآيات ولا يفهمها[١]، وإذا كان المراد هنا عدم الانتفاع بالسماع لنفي حصول أثره ؛ فإنما ذلك لتشبيهه بحال من لا يسمع ؛ فكان من لا يسمع أدخل في المعنى إذ هو المشبه به.

الشرط الثاني: الإنصات:

أ- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

فأمر الله المؤمنين بالاستماع للقرآن إذا قرئ والإصغاء له ليفهموا آياته ويعتبروا بمواعظه ويتدبروه ويعقلوه لعلهم يرحمون؛ لما في القرآن من أسباب الرحمة والهداية[٢].

وقد ذكر الطبري وغيره أن الحال التي يجب فيها الاستماع المأمور به في هذه الآية هي حال الصلاة والخطبة؛ إذ المأموم فيهما مأمور بالاستماع، وذكروا في ذلك أسباباً لنزول الآية وآثاراً تدل على ذلك[٣]، ولكن القارئ المتأمل لا يخفى عليه ولا يغيب عنه أن الأمر بالاستماع في الآية علق بسماع القرآن: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وذلك عموم يشمل سماع القرآن إذا قرئ، في الصلاة كانت القراءة أم

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٩٢/١١.

(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٦٢/٧.

(٣) انظر جامع البيان للطبري ١٦٢/٧-١٦٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٥٣/٧-٣٥٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٩٢/٢-٢٩٣.

خارجها، وقصره على حال الصلاة فيه نظر، حتى لو ثبت أنه سبب نزول الأمر بالاستماع؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد بين الشوكاني معنى هذا العموم في الآية فقال: « أمرهم الله سبحانه وتعالى بالاستماع للقرآن والإنصات له عند قراءته لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح، قيل هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام ، ولا يخفاك أن اللفظ أوسع من هذا، والعام لا يقصر على سببه ؛ فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل حالة وعلى أي صفة مما يجب على السامع، وقيل هذا خاص بقراءة رسول الله ﷺ للقرآن دون غيره ولا وجه لذلك » [١].

ب- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[الأحقاف: ٢٩] فقد أحسن هؤلاء النفر الاستماع فلما قضيت التلاوة ولوا إلى قومهم منذرين يحذروهم مما حذر منه القرآن ويرغبوهم فيما رغب فيه.[٢].

إنك لتعجب من سرعة هذا التحول الذي أحدثه هذا السماع الهادف ، فأنت ترى أن هؤلاء النفر أحسنوا الإنصات والاستماع، فأثمر ذلك فهماً عميقاً فأشادوا بالمتلو وتحولوا في لحظة إلى دعاة إليه، يرغبون فيما رغب فيه، ويحذرون مما حذر منه، واقرأ في ذلك السياق الكريم :﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/٢٨٠.

(٢) انظر الكشاف للزمخشري ٣١١/٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢١٠/١٦-٢١٦، وفتح القدير للشوكاني ٢٥/٥.

يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف].

الشرط الثالث: حضور القلب عند الاستماع:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، والمعنى: إن في ذلك الأخذ- المتقدم ذكره[١] في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦] - أو في المذكور من أول السورة إلى هنا[٢] ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ أي لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي عقل، ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ : "أي أصغى لإخبارنا إياه عن هذه القرون التي أهلكناها بسمعه فيسمع الخبر عنهم كيف فعلنا بهم حين كفروا بربهم وعصوا رسله، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي وهو متفهم لما يخبر به عنهم شاهد له بقلبه ، غير غافل عنه ولا ساه"[٣].

قال ابن القيم -رحمه الله- : « إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى

---

(١) انظر جامع البيان للطبري ٢٦/١٧٧.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/٢٣، والفوائد لابن القيم ص ٩.

(٣) المصدر السابق .

ﱡﭐ ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﱠ[ق: ٣٧]؛ وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفا على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه، وأدله على المراد ، فقوله : ﱡﭐ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ ﱠ: إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: ﱡﭐلِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﱠ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله ،كما قال تعالى: ﱡﭐإِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا ﱠ [يس: ٦٩ – ٧٠][(١)]،أي حي القلب، وقوله: ﱡﭐأَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ ﱠ أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله: ﱡﭐوَهُوَ شَهِيدٞ ﱠ أي شاهد القلب حاضر غير غائب ..، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له ، والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر»[(٢)].

الشرط الرابع: الابتعاد عن اللهو واللغو وما في معناهما من الشواغل:

وهذا المعنى مأخوذ من مفهوم مخالفة لغو المشركين عند سماع تلاوة القرآن حتى لا يفهموه أو يفهمه من يتلوه قال تعالى: ﱡﭐ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﱠ[فصلت: ٢٦].

---

(١) الآيتان ٦٩-٧٠من سورة يس .

(٢) الفوائد لابن القيم ص ٩-١٠.

قال مجـــاهد :- في معنى الآيـــة- : « والغوا فيه بالمكاء والتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قـــرأ القرآن،كانت قريش تفعله »(١)، والذي أردت الاستدلال به من هذه الآية هو مفهوم مخالفتها؛ إذ تعليل اللغو عند سماع القرآن برجاء الغلبة المرتبة على عدم سماع القرآن سماعا يحدث أثرا في السامع أو التالي يقتضي أن حال الهدوء والإنصات والابتعاد عن اللغو واللهو على العكس من ذلك.

الشرط الخامس: التواضع:

قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢ – ٨٣] ، والمعنى أن الله وصف النصارى في الآية بأن منهم قسيـــسين ورهباناً لا يستكبرون، وإذا سمعوا القرآن فاضت عيونهم مما عرفوا من الحق،قال الشوكاني : «وصفهم الله سبحانه بأنهم لا يستكبرون عن الحـــق، بـــل هـــم متواضعـــون ، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ معطوف على جملـــة﴿وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ »(٢).

الشرط السادس: استشعار عظمة المسموع:

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ١١٢/٢٤.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٦٨/٢.

إن لاستشعار عظمة المسموع وأنه كلام الله عز وجل- الذي كرم الإنسان فخاطبه به، وهو الهباءة الصغيرة في هذا الكون الفسيح المسبح بحمد الله- أكبر الأثر في الاستعداد لسماع القرآن سماعاً يليق بجلال المتكلم به سبحانه، وما يجب له من الإفراد بالألوهية المطلقة، ومن مظاهر استشعار تلك العظمة قوله تعالى حكاية عن الجن حين سمعوا القرآن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢] ، فقولهم: ﴿عجبا﴾ "أي بديعاً مبايناً لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه، ومواعظه، قد باين في ذلك أشكاله ونظائره"[(١)]، قال الحافظ ابن كثير: «يفتخرون بذلك، وهو مفخر لهم، وشرف رفيع، وصفة حسنة»[(٢)].

الشرط السابع: الإيمان بالقرآن :

قال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١]" أي ما تسمع إلا من يؤمن لا من يكفر، والمراد بمن يؤمن بالآيات من يصدق بالقرآن، وجملة ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ تعليل للإيمان أي فهم منقادون مخلصون"[(٣)].

الشرط الثامن : التقوى:

قال تعالى:﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ﴾[المائدة: ١٠٨]،والمعنى:خافوا الله وراقبوه واسمعوا ما يقال لكم وما توعظون به سماع إجابة وقبول فاعملوا به وانتهوا

---

(١) الكشاف للزمخشري ٦٢٣/٤، وفتح القدير للشوكاني ٣٠٢/٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٥٩/٤.

(٣) فتح القدير للشوكاني ١٥١/٤.

إليه[١]، وفي تقديم الأمر بالتقوى على الأمر بالاستماع دليل ظاهر على دور التقوى في الاستماع الذي يولد علماً وفهماً، ويثمر عملاً وطاعةً.

المطلب الثاني : سلامة حاسة النظر (العين):

البصر ضد العمى، وهو معروف لدى الخاصة والعامة ، وأداته العين ، قال صاحب القاموس: « البصر محركة: حس العين »[٢].

ولست أريد هنا الكلام عن تلك الحاسة وما أبدعه الله فيها من جميل خلقه، ودقيق صنعه، كما لا أريد الحديث عن كيف تتم عملية الإبصار؛ فموضع ذلك كله علم التشريح، وإنما الذي يهمني في هذا الموضع هو الكشف عن دور هذه الحاسة في فهم كتاب الله عز وجل، ولا يتم دور البصر في إرسال الصورة إلى العقل ما لم يصاحب النظر حضور القلب وتيقظ الضمير قال تعالى:﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، فمهمة العين إذن هي إرسال الصور إلى القلب الحاضر المتيقظ المستعد للفهم والاعتبار، ويمكن إيجاز دور البصر في فهم القرآن الكريم في النقاط التالية:

١- النظر في مخلوقات الله عز وجل التي دعا إلى النظر إليها نظر تأمل وتبصر: قال تعالى:﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[آل عمران: ١٩٠ – ١٩١]

(١) انظر جامع البيان للطبري ٧/١٢٢، والكشاف للزمخشري ١/٦٨٩.

(٢) القاموس المحيط للفيروزابادي ١/٣٨٧.

وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦ – ٨] إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو الإنسان للنظر في صفحة هذا الكون البديع المشاهد نظراً يرسل ما فيه من عجائب إلى القلب الحي المتيقظ ليعقل عن الله خطابه، ومن هنا كان البصر أحد وسائل إدراك المعرفة، التي الفهم من أهمها وآكدها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] فذكر البصر في وسائل إدراك العلوم، وفهم القرآن الكريم من أهم العلوم وآكدها.

٢- تقريب المعاني بوضعها في صور محسوسة:

لقد استخدم القرآن الكريم أسلوب ضرب الأمثال كثيراً لتقريب بعض المعاني بجعلها في صور محسوسة مشاهدة، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً منها:

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، والذي أريد الاستدلال به من هذا المثال هو تلك الصورة المحسوسة المرئية، صورة حجر أملس عليه تراب فأصابه مطر شديد فتركه أملس وكأن لم يكن عليه تراب قط؛ ولكي يكون المعنى أعمق في نفسك خذ حجراً أملس وضع عليه تراباً فستلاحظ أن التراب لا يكاد يستقر عليه، ولو استقر عليه فخذ غرفة من ماء فصبها عليه فستلاحظ سرعة انحدار التراب وزواله من فوق الحجر، وإذا

كان التراب لا يكاد يستقر على الحجر الأملس وغرفة ماء عن قرب كافية لإزالته عن الحجر الأملس، فكيف إذا كان الذي أصابه مطر غزير عال في ارتفاعه شديد في انصبابه ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾؟، إنها صورة رائعة ترسلها حاسة النظر إلى القلب الحي اليقظ لتقول له: فكما لا يستقر التراب على الحجر الأملس حين يصيبه المطر العظيم القطر فكذلك لا يستقر ثواب نفقة من أنفق نفاقاً ومراءاةً ومناً وأذىً، وتقابل هذه الصورة صورة أخرى للمنفق ابتغاء مرضاة الله بلا منّ أو أذية: قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فمثل نفقة هذا المنفق ابتغاء مرضات الله كمثل تلك الجنة في مكانها المرتفع الرخو الخصب إن أصابها الوابل كان لها إرواء ولا خوف عليها منه لارتفاعها، وإن أصابها الطل كان لها إرواء وأي منهما أصابها نفعها فأخرجت ثمرها ضعفين[1]؛ إنها صورة أخرى يتأملها النظر ويتصورها فيرسلها إلى القلب الحي اليقظ ليفهمها ويدرك بها بعد ما بين الثوابين ثواب من أنفق نفقته رئاء الناس ومناً وأذىً، وثواب من أنفق نفقته ابتغاء مرضات الله؛ حيث مثلت نفقة الأول في ذهابها وعدم نمائها بتراب على حجر أملس أصابه مطر شديد فلم يبق منه شيئاً، ومثلت نفقة الثاني بجنة على ربوة أصابها وابل أو طل وأي منهما أصابها أخرجت ثمرها ضعفين، وهكذا في أمثلة القرآن الكريم تتحول المعاني إلى صور

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٣٢٦.

مرئية محسوسة تبهر الأنظار وتأسر القلوب؛ لجمالها ووضوحها، وحيويتها، حتى لكأنها رأي عين، ولولا خشية الإطالة لأمتعت القارئ بمزيد من ذلك، ولكن لذلك مجال غير هذا؛ إذ المقصود هنا المثال الذي به يتضح المقال.

المطلب الثالث : سلامة حاسة العقل (القلب):

العقل ميزة أكرم الله عز وجل بها الإنسان، فميزه بها عن البهائم، وهيأه بها لحمل الأمانة وتحقيق الخلافة في الأرض، فهو مناط التكليف، والعقل صفة من المعاني الخفية يستدل لوجودها وكمالها بصفات وأمور عدة، وقد عرفه صاحب القاموس فقال: «العقل:العلم، أو بصفات الأشياء، من حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين، أو مطلق لأمور أو لقوة بها يكون التمييز بين القبح والحسن..»(1).

وقد دل القرآن الكريم والسنة النبوية على أن العقل محله القلب؛ فمن القرآن قوله تعالى:﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج: ٤٦]، قال القرطبي- في تفسيره لهذه الآية- : « أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن، وقد قيل إن العقل محله الدماغ، وروي عن أبي حنيفة وما أراها عنه صحيحة»(2).

ومن السنة قوله ﷺ : ((.. **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح**

(1) القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤/١٨-١٩.

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/٧٧.

الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب ››[١]، قال الحافظ ابن حجر- في شرحه لهذا الحديث - : « وخص القلب بذلك؛ لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب والحث على صلاحه والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثراً فيه، والمراد المتعلق به من الفهم الذي ركبه الله فيه، ويستدل به على أن العقل في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] قال المفسرون: أي عقل، وعبر عنه بالقلب لأنه محل استقراره »[٢].

قلت: قول الحافظ: « والمراد المتعلق به من الفهم الذي ركبه الله فيه » قول له دلالته؛ إذ ليس مجرد وجود تلك العضلة أو المضخة دليلاً على وجود العقل فكم من مجنون وأبله له تلك العضلة التي تدق وتضخ الدم بانتظام ومع ذلك يوصف صاحبها بأنه غير عاقل حساً وشرعاً؛ فالمراد من العقل إذن هو تلك الغريزة التي بها يميز الإنسان لا مجرد وجود تلك العضلة أو المضخة.

والخلاف في هذه المسألة طويل ليس هذا محل بحثه[٣]؛ والعقل، والقلب، والقلوب، والألباب، والفؤاد والأفئدة كلها ألفاظ وردت في القرآن الكريم مراداً

(١) متفق عليه (صحيح البخاري مع الفتح ١/١٥٣، كتاب الإيمان، باب فضل من أستبرأ لدينه وعرضه، وصحيح مسلم مع شرح النووي١١/٢٨،كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات).

(٢) فتح الباري للحافظ ابن حجر١/١٥٦.

(٣) انظر في هذه المسألة: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٩/٢٨٧، وشرح صحيح مسلم للنووي ١١/٢٩.

بها تلك الغريزة التي بها يعقل الإنسان الخطاب عن الله، ويميز بين ما يضره وما ينفعه؛ ليجتنب الضار ويأتي النافع، وكل من السمع والبصر رسول للقلب ورائد له يوصل إليه الخطاب والصورة المسموعة أو المرئية فيعقلها ويفهمها ويصدر ما ينبغي في حقها من قرارات وعمل أو ترك، وإذا لم يصدر القلب القرار الصائب والعمل اللازم كانت التبعة واللوم عليه، وبرئ السمع والبصر؛ إذ قد قاما بما عليهما من إيصال تلك المعلومات إلى القلب، وهو الملوم بتجاهل تلك المعلومات والتفريط فيما ينبغي حيالها قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]؛ فالعقل هو الأداة التي عليها يدور الفهم ومنها يكون الامتثال أو الإعراض،وقد تنوعت الأساليب القرآنية لتحفيز العقل وإفهامه، ومن تلك الأساليب :

١- وضوح لغة الخطاب :

فقد بين الله سبحانه وتعالى أن هذا القرآن نزل بلسان عربي مبين؛ فكان على العاقل تعلم تلك اللغة إن أراد فهم خطاب الله الذي نزل بها قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:١- ٢] وقال تعالى:﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ١ - ٣]، أي هذا الكتاب بين واضح جلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣] أي تفهمونه وتتدبرونه[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣٢/٤.

٢- توضيح الأحكام وبيانها :

إن أحكام القرآن الكريم بينة واضحة وليست ألغازاً أو طلاسم لا يعرفها إلا الخواص، وكثيراً ما يُتبع القرآن الكريم بيان الأحكام بعلة البيان أو ما يرجى من المخاطب الذي بينت له الآيات وهو أن يعقل تلك الأحكام ويفهمها ليمتثلها، وذلك لأن بيان الخطاب وسيلة من وسائل الفهم؛ إذ ربما خفيت المعاني لخفاء قوالبها اللفظية،وذلك فيما يلحق القوالب من الغرابة والتعقيد اللفظي والمعنوي، وأحكام القرآن براء من ذلك كله: قال تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾البقرة: [٢٤١ – ٢٤٢]؛ وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [النور: ٦١]؛ فذكر سبحانه وتعالى جملة من الأحكام الاجتماعية فبينها ووضحها ليعقلها المخاطبون ويمتثلوها، وذلك بلغة فصيحة بينة، لا غرابة فيها، ولا تعقيد، ولا التواء.

٣- استثارة العقل بعرض عجائب المخلوقات:

لقد استخدم القرآن الكريم أسلوب استثارة العقول وحفزها على التأمل في مخلوقات الله عز وجل الناطقة بقدرة صانعها فقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ

مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]. أي إن في ذلك لعبرةً لمن تأمل هذا التفاوت والاختلاف الذي لا يرجع إلى سبب محسوس من اختلاف في ماء السقي أو التربة، بل يرجع إلى مؤثر آخر يجب على العقل تأمله، وذلك المؤثر هو قدرة الله سبحانه وتعالى؛ "ولهذا قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودات"(١)، إلى غير ذلك من الآيات التي تعرض مشاهد الكون وعجائب خلق الله داعية العقل الواعي إلى فهمها، والقرآن الكريم حين يعرض تلك المشاهد داعياً القلوب إلى تأملها إنما يهدف في الحقيقة إلى ما يصدر عن ذلك التأمل من فهم ورقة ونور وحياة في القلب تهيؤه لأن يعقل عن الله ما خاطبه به قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٦ – ١٧]، قال الحافظ ابن كثير- في تفسيره لهاتين الآيتين-: « يقول تعالى أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له، وتسمع له وتطيعه ..، وقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧] فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/٦٥.

القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها ويفرج الكروب بعد شدتها؛ فكما يحي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ،ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل »[1].

٤- ضرب الأمثال :

إن ضرب الأمثال من أرفع الأساليب وأنجع وسائل التفهيم؛ لما فيه من نقل المعاني المعنوية إلى معان محسوسة مشهودة، تجعل الخفي جلياً، والغامض واضحاً، والقريب بعيداً؛ لمن كان له حس به يفهم المثل ويعقل الخطاب، وقد كان بعض السلف يغتم ويحزن إذا مر بالمثل في القرآن يضرب و لم يفهم مضربه ويعقل معناه؛ فقد أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام عن عمرو بن مرة قال: « إني لأمر بالمثل من كتاب الله عز وجل ولا أعرفه فأغتم به لقول الله عز وجل: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣] »[2].

ولست في هذا الباب أتحدث عن أمثال القرآن بعامة فذلك بحث طويل خاض غماره كبار العلماء وأفردوه بالتأليف[3]، وإنما الذي يهمني في هذا الصدد هو بيان أن أسلوب ضرب الأمثال أسلوب خاطب الله به القلوب الحية وجعله من وسائل إفهامها قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٣٣٢-٣٣٣.

(٢) انظر فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٤٢.

(٣) ذكر السيوطي في القرآن في الإتقان (١٣١/٢) طائفة من الذين أفردوا أمثال القرآن بالتأليف.

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨]، فقد بينت هذه الآية بالمثال الحي المشاهد المحسوس سماجة الشرك وضعف حجة ادعاء الشريك لله سبحانه؛ إذ كما لا يرضى أحدكم أن يشاركه مملوكه فيما يخصه من أهل ومتاع ومكانة وهو مثله في الإنسانية ووحدة الأصل فكذلك لا يصح في العقول الحية والفطر السليمة أن يشرك المخلوق الخالق فيما هو من خصائص الله الخالق جل وعلا.

٥- أسلوب الاستفهام :

لقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الاستفهام لإثارة العقل وتحفيزه وتحريكه لما لأسلوب الاستفهام من في تحريك كوامن العقول لتدب فيها الحياة والحرارة والحركة فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[المؤمنون: ٨٠]، أي"﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ من غير أن يشاركه في ذلك شيء،﴿وَلَهُ ﴾ خاصة﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي هو المؤثر في اختلافهما أي تعاقبهما واختلافهما ازدياداً أو انتقاصاً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾أي ألا تتفكرون أو أتتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل أن، ذلك راجع إلى قدرة الله[(١)].

٦- الحث على الاعتبار بآثار الماضين:

إن التهديد بالأخذ والعقوبة يبقى في الغالب شيئاً متوقعاً قد لا تقتنع به بعض النفوس، وإبعاداً للقلوب النيرة عن تلك البرودة والبلاهة حث القرآن الكريم على الاعتبار بأخبار الأمم الماضية التي كذبت الرسل وأمر بالنظر إلى آثارها نظرة تفهم واعتبار: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ

(١) انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ١٤٧/٦.

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]

والمعنى : أفلم يسر هؤلاء في الأرض فينظروا آثار الماضين ما وحل بهم ، فتكون لهم بذلك قلوب يعقلون بها عن الله حججه، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب عن إبصار الحق والاعتبار به[1]؛ فالعقول النيرة هي التي تعقل- بمشاهدتها آثار الماضين-سنة الله فيمن عبد غيره وكذب رسله؛ فتنيب إلى الله، وتصغي إلى خطابه إصغاء فهم وامتثال خشية أن يصيبها ما أصاب من أشرك بالله غيره وكذب رسله. وهكذا يحرك القرآن الكريم كوامن القلوب الحية لتفهم عن الله خطابه وتعقله،كل ذلك بوضوح في الأحكام حين يبنيها ويفصلها، ووضوح في الأمثال حين يضربها فيصور بها المعاني الدقيقة الخفية فيحولها إلى صور واضحة محسوسة، ووضوح في آيات الكون وعجائب المخلوقات حين يدعو إلى النظر فيها للاستدلال بها على قدرة خالقها ووضوح في عرض سنن الله في المكذبين المعرضين عن آياته وأخذهم وترك الآثار الدالة على أخذهم؛ فلم يبق لمن لم يعتبر بذلك كله إلا أن يوصف بأنه الأصم الذي لا يسمع، والأعمى الذي لا يرى، والأبله الذي لا يعقل.

المبحث الثاني: بذل أقصى الطاقة في إعمال الذهن (العصف الذهني) :

إن للذهن البشري طاقة عجيبة بها تفوق الإنسان وسخر الله له الأرض وما فيها، فاخترع الآلات التي شقت الفضاء، وغاصت في لجج البحار، وأعماق الأرض بتوفيق الله وتسخيره.

(١) انظر جامع البيان للطبري ٢٠/١٤٨.

ولما كانت للذهن البشري هذه الطاقة الهائلة أكثر الله عز وجل في القرآن الكريم من مخاطبة العقل وتحفيزه بذكر الوسائل التي تستثيره ، وتوقظ مكامن الإدراك فيه؛ ليعقل عن الله خطابه، ومن تلك الوسائل والمحفزات الذهنية المعينة على فهم القرآن الكريم: التفكر، والتذكر، والتدبر؛ ولإيضاح القول في هذه الوسائل قسمت القول فيها إلى ثلاثة مطالب، وذلك على النحو التالي:

المطلب الأول : التفكر:

التفكر هو:إعمال العقل، والتأمل في الشيء لفهمه ومعرفة ما يدق من أمره أو يؤول إليه حاله، قال ابن فارس: « فكر: الفاء والكاف والراء: تردد القلب في الشيء يقال:تفكر إذا ردد قلبه معتبرا، ورجل فكير كثير الفكر »[1].

وقال صاحب الصحاح: « التفكر:التأمل »[2].

وقال الراغب الأصفهاني: «فكر: الفكرة قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب..ورجل فكير كثير الفكرة، قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفرك لكن يستعمل الفكر في المعاني وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول لحقيقتها »[3].

ومن خلال تتبعي لآيات القرآن الكريم ظهر لي أن بين الفكر والعقل ارتباطاً دقيقاً يصعب حده وتمييزه؛ فالمتأمل في التعبيرين في القرآن الكريم

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ٧٩٣.

(٢) مختار الصحاح ص ٥٠٨.

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٨٤.

يلاحظ أن الأسلوب الذي استخدمه القرآن الكريم في مخاطبة العقول هو الأسلوب نفسه الذي استخدمه في مخاطبة الأفكار؛ فيبين الأحكام لقوم يعقلون، ويبينها لقوم يتفكرون قال تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤١-٢٤٢]، وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩]،ويضرب الأمثال التي تقرب المعاني لقوم يعقلون، ويضربها لقوم يتفكرون، قال تعالى :﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨]، وقال تعالى :﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

ويستثير العقول بأسلوب الاستفهام الذي يحرك العقل ويحفزه لتدب فيه الحياة ليعقل عن الله خطابه، ويستثير به الأفكار كذلك فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[المؤمنون: ٨٠]، وهكذا نجد القرآن يخاطب المتفكرين كما يخاطب العقلاء؛ فيبين الأحكام لقوم يتفكرون ويبينها لقوم يعقلون ، ويضرب الأمثال لقوم يتفكرون ويضربها لقوم يعقلون، ويستثير

العقول بأسلوب الاستفهام ، ويستـثير بـه الأفكار كذلك ، مما يوضح قوة الارتباط بين هاتين المنـزلتين ارتباطاً يدق معه التفريق بينهما.

المطلب الثاني: التذكر :

هذه الوسيلة قريبة من التي قبلها وإن كان بينهما فرق دقيق يحسه المرء ولا يلمسه، ويتذوقه ويجد طعمه من غير أن يلوكه، والتـذكر في اللغـة ضـد النسيان(1)؛ فكأن الإنسان مطالب بتذكر آيات الله المتلوة والمرئية تذكراً يجعلها شاغل مخيلته يعيدها ويتأملها حتى يحصل له فهمها وإدراكها علـى الوجـه الأكمل، قال ابن القيم: « والتذكر والتفكر منـزلان مثمران أنواع المعارف والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم ، قال الحسن البصري : « ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت »، والتذكر: تفعل من الذكر وهو ضد النسيان، وهو حـضور صـورة المذكور العلمية في القلب، واختير له بناء التفعل لحصوله بعد مهلـة وتـدرج كالتبصر والتفهم، والتعلم؛ فمنـزلة التذكر من التفكر منـزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه؛ ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذكرى».(2)

والأسلوب الذي استخدمه القرآن لحث العقل والتفكر واستثارتهما هـو نفسه الأسلوب الذي استخدمه للحث على التذكر؛ فكما يفصل الله الآيات

---

(1) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ٣٨٨، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ٢/٣٦.

(2) مدارج السالكين لابن القيم ١/٤٤١.

ويبينها لقوم يعقلون ويتفكرون يفصلها ويبينها لقوم يتذكرون كذلك، قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٦] ، وقال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ١] ، يضرب الله الأمثال لقوم يعقلون،ويتفكرون يضربها لقوم يتذكرون كذلك قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ – ٢٥]، ويستثير العقل والفكر بأسلوب الاستفهام الذي يحرك العقل والفكر ويستثير به التذكر، كذلك قال تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠]، وهكذا القرآن الكريم يوحد الأساليب التي استخدمها لاستثارة هذه الوسائل وتحفيزها،مما يؤكد تقاربها، وصعوبة التفريق بينها.

المطلب الثالث : التدبر :

التدبر في اللغة هو:التأمل والنظر في الأمر لمعرفة عاقبته وما يؤول إليه(١).

قال الزمخشري: « تدبر الأمر تأمله، والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل،فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه» (٢).

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ٣٧٤، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ٢/٢٧-٢٨.

(٢) الكشاف للزمخشري ١/٥٤٠.

ويظهر لي من المعنى اللغوي لهذه المادة أن التدبر هو: بذل الوسع والطاقة في إعمال العقل والفكر لتأمل أمر ما وتقليبه لاستجلاء كوامنه وخباياه، وما قد يعزب عن الناظر المستعجل من شوارده وغوامضه وخفاياه، وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم في أربعة مواضع وهي:

الموضع الأول: قوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقد جاء هذا الموضع في سياق ذم الله فيه المتخلفين عن طاعة رسول الله ﷺ المتجاهلين لأوامره مع أنها من عند الله يقرؤونها صريحةً واضحةً في كتاب ناطقة أحكامه وآياته بصدقه لو تدبروه بعقول منصفة حية واعية قال تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١][(١)]، ثم يأتي إنكار هذا الإعراض المترتب على عدم تدبر القرآن الذي قد دل إحكامه على صدقه وأنه من عند الله حقاً: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

والمعنى : " أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم؛ لاتساق معانيه،وائتلاف أحكامه وتأييد بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه وتناقضت معانيه وأبان بعضه عن فساد بعض"[(٢)].

(١) الآية ٨١ من سورة النساء.

(٢) جامع البيان للطبري ١٧٩/٥.

الموضع الثاني : قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقد جاء هذا الموضع ضمن سياق بين الله فيه أن هذا الكتاب حق ينطق بالحق،ولكن قلوب المعرضين عنه في غفلة عن ذلك بأشغالها المختلفة، وصوارفها المتعددة ، وأصحابها هم الذين يتحملون عقوبة ما يترتب على ذلك الإعراض والتكذيب قال تعالى: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٢ – ٧١] ؛ ففي السياق الكريم استفهامات عدة: "مستعملة في التخطئة على طريق المجاز المرسل ؛ لأن اتضاح الخطأ يستلزم الشك في صدوره من العقلاء فيقتضي ذلك الشك السؤال عن وقوعه من العقلاء، ومآل معاني هذه الاستفهامات أنها إحصاء لمثار ضلالهم وخطئهم لذلك خصت بذكر أمور من هذا القبيل،وكذلك احتجاج عليهم وقطع لمعذرتهم وإيقاظ لهم بأن صفات الرسول كلها دالة على صدقه، فالاستفهام الأول عن عدم تدبرهم فيما يتلى عليهم من القرآن وهو المقصود بالقول أي الكلام.."[(١)].

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٨/٨٧-٨٨.

فقد بينت هذه الآيات أن سبب تكذيب هؤلاء راجع إلى أهم لم يتدبروا القرآن ولو تدبروه لعلموا أنه حق يحمل دلائل صدقه وصدق من جاء به من عند الله، ثم عطف الله على ذلك استفهامات أخرى تستدعى سبب التكذيب وهي أن يكون هذا الرسول بدعاً من الرسل ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والقوم مقرون بإرسال الرسل، فكيف ينكرون نبوة النبي ﷺ وهم يعلمون أن الله قد بعث رسلاً قبله؟، أم أن سبب التكذيب عدم معرفتهم له: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ والحال أن ذلك باطل فقد عرفوا رسولهم وعرفوه بالصدق والأمانة وجميل الخصال، وأنه ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ! أم أن سبب تكذيبهم له اتهامه بالجنون الذي أفقده عقله فجعله يقول ما لا يعرفون من قوله السابق: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، وذلك سبب ساقط أيضاً؛ إذ الجنون له علامات قد عرفها القوم وليس في الرسول ﷺ واحدة منها، ولهذا نفى عقلاؤهم عنه الجنون وقالوا: « والله ما هو بالجنون لا بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته»[1]، فلم يبق إلا أنه رسول الله جاءهم بالحق فأنكروه وكرهوا اتباعه، وأعرضوا عنه: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

(١) جاء ذلك في قصة الوليد بن المغيرة عند ما أرسلته قريش إلى النبي ﷺ لمفاوضته فتلى عليه القرآن فتأثر لذلك وقالوا لا ندعك حتى تقول فيه قولا (انظر سيرة ابن هشام ١/٢٧٠).

الموضع الثالث : قوله تعالى :﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وفي هذا الموضع بين الله سبحانه وتعالى أنه أنزل على رسوله محمد ﷺ هذا الكتاب المبارك ليتدبره الناس ويهتدوا بنوره وبركته، وليكون ذكرى وعبرة للعقلاء، ووجه الخطاب إلى النبي ﷺ بالثناء على الكتاب المنزل عليه، فبين أنه كتاب مبارك،وأنه أنزل ليتدبر تدبرا يحدث تذكرة وموعظة لأولي الألباب؛ "فجعل القرآن للناس ليتدبروا معانيه ويكشفوا عن غوامضه بقدر الطاقة، فإنهم على تعاقب طبقات العلماء به لا يصلون إلى نهاية مكنونه"[(١)].

الموضع الرابع: قوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقد جاء هذا الموضع ضمن سياق كريم ذم الله فيه المتخلفين عن تطبيق أوامره لمرض قلوبهم ونفاقها مبينا أنهم بذلك يباينون أهل الإيمان الذين يتطلعون إلى نزول القرآن، ويشتاقون إلى أوامره وإن كان فيها القتل وقطع الرقاب ، وأن المنافقين يكرهون ذلك المنزل إذا كان مخالفا لأهوائهم، لضعف إيمانهم بالله وضعف ثقتهم بموعوده سبحانه، فتراهم عند الأمر بالقتال تدور أعينهم من الخوف والجبن، كأنها ترى الموت عياناً لمجرد الأمر بالقتال، وقبل ملاقاة الأبطال، وولوج ساحات النزال، قال تعالى:﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٣/٢٥١-٢٥٣.

عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٠ – ٢٤]؛ فهؤلاء لضعف إيمانهم ومرض قلوبهم وقلة ثقتهم بموعود الله يخشون الأمر بالقتال، وكل تكليف يستوجب طاعة تشق على النفس، والحال أنهم لو سلكوا سبيل المؤمنين في طاعة الله ورسوله لكان خيراً لهم وأزكى، وهلا تدبروا القرآن ليعلموا أن موعود الله حق، وأن الأجل لا يزيده قعود ولا ينقصه خروج، وذلك مبين في آي كثيرة لو تدبروا القرآن وعقلوه، ولهذا قال الله في حقهم موبخاً لهم منكراً حالهم مع القرآن وأوامره : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال الطاهر بن عاشور : « والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن، ومن إعراضهم عن سماعه، وحرف (أم) للاضراب الانتقالي، والمعنى: بل على قلوبهم أقفال »(١).

المبحث الثالث : البعد عن الشواغل وتحري أوقات الهدوء:

إن الفهم والتدبر عملية ذهنية تحتاج من المتأمل إلى هدوء وسكون وصفاء في المزاج، وخلو للذاكرة من الشواغل والملهيات، وأنسب الأوقات لذلك ساعات الليل التي جعلها الله سكناً قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦٧]، ومن هنا كانت ساعات الليل أفضل ساعات التأمل وإعمال الذهن، فجعلها الله من أهم الظروف المناسبة لتلاوة كتابه

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦/١١٣-١١٤.

بتأمل وتدبر قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١ – ٦]. فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، فيه عدول عن النداء بالاسم إلى الصفة للتأنيس والتلطف، وليشمل ذلك كل متزمل راقد ليله؛ ليتنبه إلى قيام الليل؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل، واتصف بتلك الصفة(١)، ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أمر يشمل الليل كله(٢): ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل، أي صل الليل كله إلا يسيراً منه (٣)، ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ بيان للإجمال في ﴿قَلِيلًا﴾ فجعل القليل هنا النصف أو أقل منه بقليل ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾: عود على الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل؛ ولذلك لم يقيد ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾، مثل ما قيد به ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾، لتكون الزيادة على النصف متسعة، والتخيير المستفاد من لفظ ﴿أَوْ﴾ منظور فيه إلى تفاوت الليالي بالطول والقصر؛ لأن لذلك ارتباطاً بسعة النهار للعمل ولأخذ الحظ الفائت من النوم(٤)، ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي لا تعجل بقراءة القرآن بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني(٥)، قال ابن عطية: « أي تمهل وفرق بين الحروف لتبين، والمقصد أن يجد

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣١٦/٢١.
(٢) انظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٥٨/٢٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣١٨/٢١.
(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٩/ ٢٥٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٢٢/٢١.

الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النــور»[١]، ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، تعليل للأمر بقيام الليل وقع اعتراضا بين جملة ﴿قُمِ الَّيْلَ﴾ وجملة ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، وهو جملة مستأنفة اســتئنافاً بيانياً لحكمة الأمر بقيام الليل بأنها تهيئة نفس النبي ﷺ ليحمل شــدة الــوحي، ويستعار ثقل القول لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر، وذلك بكمال هديه، ووفرة معانيه، وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به، فكم غاصت فيه أفهام العلماء من فقهاء ومتكلمين، وبلغاء ولغويــين، فشابه الشيء الثقيل في أنه لا يقوى الواحــد علــى الاســتقلال بمعانيه[٢]، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ﴾، آناؤه وساعاته[٣]، ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ "أراد أن القراءة في الليل يتواطأ فيها قلب المصلي ولسانه وسمعه على الفهم والأداء والاســتماع بأكثر مما يتواطأ عليه بالنهار"[٤]، "فالمعنى:أشد موافقة بــين القلــب والبــصر والسمع واللسان لانقطاع الأصوات والحركات"[٥]، ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾" أي أخلص

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١٦٥/١٥.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٩/٢٦١-٢٦٢.

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص ٣٦٥).

(٤) المصدر السابق (٣٦٦).

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٢٨/٢١، وعزاه لمجاهد وابن أبي مليكة وغيرهما ، قلت : وهذا - يعني إشراك وسائل الإدراك المعرفي - ليحصل كمال الفهم ، فإن هذه المذكورات هي وسائل إدراك المعارف قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

للقول وأسمع له؛ لأن الليل تهدأ عنه الأصوات وتنقطع فيه الحركات فيخلص القول، ولا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل"[١]؛ ولمكانة الليل في فهم القرآن أمر الله نبيه ﷺ بالتهجد فيه فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾[الإسراء: ٧٩] ، وامتدح التالين لآياته آناء الليل فقال: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال :﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[الزمر: ٩]، وكان التهجد بالقرآن خلق رسول الله ﷺ فكان يقوم من الليل حتى تفطرت قدماه[٢]، وكان ذلك دأب أصحابه رضي الله عنهم وجعلوا فقده أول ما ينقص من العبادة فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: « أول ما ينقص من العبادة التهجد بالليل ورفع الصوت بالقرآن »[٣].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي- فيما حكى عنه تلميذه الشيخ عطية محمد سالم-رحمهما الله-: « لا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهل حفظه وييسر فهمه إلا القيام به في جوف الليل»[٤].

قلت: وينبغي تحري ساعات آخر الليل؛ لأن ذلك أبلغ في الهدوء والسكون، وفيه بركة ساعة نزول الرب، والتعرض لنفحاته، فإذا رأى عبده واقفاً بين يديه

---

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ الليل ح ١١٣٠.

(٣) خلق أفعال العباد ١/١١١.

(٤) مقدمة أضواء البيان (ص ٤).

يتملقه بتلاوة كلامه وتدبره أدناه وقربه، وأفاض عليه من رحماته ونعمائه، ووفقه لفهم كلامه والعمل به.

المبحث الرابع : معرفة اللغة العربية:

لقد بين الله سبحانه وتعالى في مواضع عدة من كتابه العزيز أنه أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين فكان معنى ذلك أن لغة العرب وسيلة من وسائل فهمه، قال تعالى : ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:١ – ٢]، وقال:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[الشورى:٧]،وقال:﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف: ١ – ٣] ، وهكذا نجد في غير ما آية من القرآن الكريم التصريح بأن هذا الكتاب أنزل بلسان عربي مبين، فكان معنى ذلك أنه لا سبيل إلى فهمه والعمل به إلا بمعرفة لغة العرب التي بها نزل.

والقرآن حين يدعو المؤمنين إلى الاعتبار بعبره والاتعاظ بمواعظه والحكم بما فيه مبيناً أنه بلسان عربي مبين فإن معنى ذلك الحث على تعلم اللغة التي بها نزل وبينت عبره ومواعظه وأحكامه، ومن هنا جاء اعتناء علماء الأمة بعلوم اللغة كاعتنائهم بنصوص الشريعة؛ لعلمهم باستحالة فهم نصوص الشريعة من غير معرفة لغة القرآن التي بها نزل، فكان منهم جهابذة تفرغوا لدراسة اللغة، فدونوا علومها نحواً وصرفاً وغريباً وأدباً وبلاغةً، وبقدر حظ الإنسان من تلك العلوم يكون حظه من الفهم في كتاب الله عز وجل، على أنه ينبغي ملاحظة أن القرآن الكريم في الذروة العليا من تلك العلوم كلها فما لم يحز الإنسان من تلك العلوم أعلاها وأشرفها فلن يصل إلى مستوى لغة القرآن.

والمتأمل في كتب التفسير وأئمته يلاحظ مكانة أثر ازدهار اللغة العربية وعلومها على التفسير وعلومه، فحين كان النبع اللغوي صافياً كانت تفاسير الصحابة والتابعين غاية في إصابة المعاني، وحين ازدهرت علوم اللغة والأدب في الأندلس لحد الابتكار انتشرت التفاسير القرآنية البديعة حتى لا تكاد تجد عالماً من علمائها إلا وله في التفسير مؤلف أو أكثر، وهي تفاسير وإن اختلفت في مضامينها وأغراض مؤلفيها إلا أنها ظلت تتسم بحسن السبك وجودة العبارة ، وإصابة المعنى من أقرب وجه، وفي عصر الانحطاط الأدبي - الذي نجد في نصوصه مثل قول الشاعر:

عجب عجب عجب ... بقر تمشي ولها ذنب

والناقة لا منقار لها ... والوزة ليس لها قتب -

لا تكاد تجد تفسيراً مستقلاً بل غاية ما ظهر في تلك المرحلة حواشي على تفاسير متقدمة، فيها من التكلف ويبس العبارة وجفافها ما يصد القارئ عن مطالعتها، ولما جاءت النهضة الأدبية ظهرت تفاسير جديدة فيها من التفسير جدته ومعالجته لقضايا العصر وإشكالات الأمة.

المبحث الخامس: معرفة واقع البشرية وقت نزول القرآن :

لقد أرسل الله محمداً ﷺ على فترة من الرسل،وجاءت رسالته والبشرية في جاهلية جهلاء أخص سمات عصرها المميزة له من بين العصور الجهل حتى عرف عصرها بالعصر الجاهلي، فجاء القرآن الكريم ليصلح تلك الأوضاع المعوجة ويرد البشرية إلى صواب رشدها، وليجعل من ذلك المجتمع نموذجاً لإصلاح المجتمعات وإن بلغت في جهلها وغيها ما بلغه أصحاب ذلك العصر المنحط في كل أوضاعه، فكانت معرفة ذلك العصر معينة على فهم الآيات

القرآنية التي نزلت لعلاج ما فيه من خلل، وفي القرآن الكريم إشارات إلى حكم نزول القرآن منجماً، لمعالجة تلك الأوضاع، وما فيها من إشكالات، وما صاحب ذلك من أعباء حمل الدعوة ونشرها قال تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٢ – ٣٣]، فالمفسر محتاج إلى معرفة تلك الأوضاع التي كان رسول الله ﷺ وأصحابه فيها بحاجة إلى ذكر ما يثبت أفئدهم أمام عتو أعداء الدعوة وتنكيلهم بالمستضعفين من أتباعها،كما هو بحاجة كذلك إلى معرفة تلك الأمثال التي كانوا يأتون بها وكيف أجاب القرآن عنها بأحسن تفسير، وفي القرآن آيات تتحدث عن بعض تلك الأوضاع التي لا يمكن فصل فهم النص القرآني عنها؛ فعند ما يقول الله تعالى:﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣]، إنكاراً على الذين جعلوا ذلك وشرعوه وليس هو من شرع الله ولا جعله فإن المفسر محتاج إلى أن يعرف هذه المسميات وعادات العرب فيها؛ ليكون المعنى أوضح عنده، وإن فهم منه عموم ذم القرآن لهم بتحريمهم ما أحل الله،وافترائهم على الله في ذلك، وفي القرآن آيات أشكلت على من لم يعرف سبب نزولها ولا ظروف تشريع أحكامها، فقد أخرج البخاري عن الزهري: قال عروة:«سألت عائشة رضي الله عنها فقلت لها:أرأيت قول الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة، قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إن هذه الآية لو كانت كما تأولتها عليه كانت: لا

جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها بالمشلل، فكان من أهل يتحرج أن يطوف بين الصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك قالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾الآية، قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما، ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: إن هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أن الناس-إلا ما ذكرت عائشة- ممن كان يهل بمناة كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا: يا رسول الله كنا نطوف بالصفا والمروة وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية ، قال أبو بكر: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما، في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت» [1]، فهذه الرواية تبين أن عروة بن الزبير أشكل عليه معنى هذه الآية وفهم منها رفع الحرج عمن لم يطف بين الصفا والمروة، حتى بينت له عائشة سبب نزولها، والظروف التي نزلت فيها، وعادات

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب وجوب الصفا والمروة ، وجعل من شعائر الله ح ١٦٤٣.

القوم في الطواف بين الصفا والمروة قبل نزول هذه الآية، وبينت رواية أبي بكر أن جانباً من تلك العادات داخل في عموم الآية أيضاً، رافع للإشكال فيها، ومن هنا جاء اهتمام العلماء بأسباب النـــزول ومعرفة وقائع الأحكام وظروفها، حتى جعلوا معرفة أسباب النـــزول من أهم شروط المفسر؛ فعن ابن سيرين قال: «سألت أبا عبيدة عن شيء من القرآن فقال: اتق الله وعليك بالسداد فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن» (1)، وقال الواحدي: «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها» (2)، وقال ابن دقيق العيد: « بيان سبب النـــزول طريق قوي في فهم معاني القرآن» (3)، وقال ابن تيمية: « معرفة سبب النـــزول معين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب» (4)، وقال الشيخ محمد الغزالي : « لكي نفهم القرآن فهماً صحيحاً فلا بد أن نفهم الأحداث التي عاصرته، وأن نعي الأحوال التي قارنت نزوله، فإن آيات القرآن وثيقة الارتباط بالظروف التي جاءت فيها، وفقه هذه الظروف جزء من فقه الهدايات السماوية التي تعلقت بها وتعرضت لها» (5).

قلت: وهذا الارتباط لا ينفي عموم اللفظ؛ لأن العبرة بعمـــوم اللفـــظ لا بخصوص السبب، على أن في القرآن الكريم آيات ليس لها ذلك الارتباط الزمني المحدود بل تتعداه حتى لكأنها تسبق الزمن وتنتظر في الكشف عن معانيها قـــادم

---

(1) فجر الإسلام لأحمد أمين (ص ٢٠٠).

(2) أسباب النـــزول للواحدي - (ص ٩٦)-، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٨/١.

(3) انظر الإتقان في علوم القرآن ٢٨/١.

(4) المصدر السابق.

(5) نظرات في القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي (ص ١٥).

الأيام كقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]، فالتعبير هنا جاء بصيغة المضارع الدال على التجدد وقد اقترن بالسين فتمحض للاستقبال، وقد أدرك الناس اليوم من أسرار تلك الآيات في الكون والأنفس ما لم يدركه من كان قبلهم، وقد يدرك القادم منهم من ذلك ما لم يدركه الحاضر ويبقى المضارع في تجدده واستقباله.

المبحث السادس: الرجوع إلى القرآن الكريم (تفسير القرآن بالقرآن):

إن الذي يريد فهم القرآن الكريم وتفسيره لا بد له من الرجوع إلى القرآن الكريم بالحفظ أو التصفح فإن بعض الآيات يجمل فيها الأمر في موضع ويبين في موضع آخر، ويطلق في موضع ويقيد في آخر، وتختصر القصة في موضع وتبسط في موضع آخر؛ مما يحتم على المفسر الرجوع إلى الآيات ذات الموضوع الواحد ومحاولة حصرها لتكمل له بذلك صورة الموضوع فيقبل على تدبره وتفهمه وتفسيره وقد اكتملت لديه صورته التي يريد فهمها أو الحديث عنها، وإهمال المفسر لذلك قد يوقعه في أخطاء جسيمة كالحكم بمطلق قيد في موضع آخر أو عموم خصص في موضع آخر، وفي بعض الآيات إحالة إلى الإجمال المبين في موضع آخر كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[المائدة: ١]، فأجمل هنا ما يتلى وبين بعضه في الآية بعدها فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[المائدة: ٣]، وبين بعضه في غير هذه السورة كقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[المائدة: ١٠٣] وهي أنواع من الأنعام كانوا يحرمونه فأبطل الله تحريمها ونفى أن يكون

ذلك من جعله وشرعه، وهذا اللون من التفسير في ذروة البيان؛ لأنه تفسير من الله المتكلم بالقرآن العالم بمراده منه، ولا يفسر الكلام أعلم بالمراد منه من المتكلم به، وقد أكد العلماء على هذا اللون من التفسير وبينوا أنه أصح طرق التفسير التي يجب الابتداء بها، قال ابن تيمية-رحمه الله-: « أصح الطرق في ذلك -يعني التفسير- أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر»(1).

وحكى الشيخ محمد الأمين الشنقيطي إجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله؛ إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا من الله جل وعلا(2)، ومن أمثلة هذا النوع من التفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، أبهم هنا هذه الكلمات وبينها في الأعراف بقولـه:﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وغيره من الأمثلة الكثيرة الدالة على أهمية الرجوع في بيان مبهمات القرآن الكريم، ومجملاته وتقييد مطلقه وتخصيص عامه إلى القرآن الكريم نفسه.

المبحث السابع :الرجوع إلى صحيح السنة:

إن الرسول ﷺ مبلغ عن الله ومن وظيفته بيان ما أرسل به بيان لفظ ومعنى قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(١) مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ص ٩٣،وانظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٧٧/٢، للسيوطي ١٧٥/٢-١٥٦.

(٢) أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٨/١.

[النحل:٤٤] ، قال القرطبي- في تفسيره لهذه الآية-:«﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني القرآن، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك، فالرسولﷺ مبين عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصله»(١).

قلت: وهذه المرتبة في البيان تلي مرتبة بيان القرآن للقرآن؛ إذ لا يتحدث عن مراد الله بعد الله أعلم بمراده من رسوله ﷺ الذي كلفه بوظيفة البيان وتعهد له بها في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ – ١٩]، ولهذا قال الإمام أحمد ابن حنبل-رحمه الله- : « السنة تفسر القرآن وتبينه »(٢)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– موضحاً مكانة التفسير النبوي ومبيناً أنه يلي تفسير القرآن بالقرآن في الرتبة –: «فإن أعياك ذلك–يعني تفسير القرآن بالقرآن–فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن موضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: «كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن»(٣)، وأمثلة هذا النوع من التفسير كثيرة جداً كبيانه ﷺ للصلاة وأوقاتها، وأحكامها، وبيانه للزكاة والأصناف التي تؤخذ منها، ومقدار ما تجب فيه الزكاة منها، ومقدار الخارج من كل صنف ونحو ذلك من توضيح المبهم، وتقييد المطلق، وتخصيص العموم، لكن هذا اللون من التفسير كثر فيه الاختلاق والوضع، كما كثرت

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٢٩/١٢-٣٣٠.

(٢) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم (ص ٤٩٥-٤٩٦)،والقرطبي في أحكام القرآن ٦٨/١.

(٣) مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ص ٩٣، وانظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٧٧/٢.

الروايات الإسرائيلية في قصص الأنبياء وأخبارهم وإن كان غالب ما طوي من ذلك مما لا فائدة في ذكره تعود على السامع، وقد توسع بعض المفسرين في ذكر تلك الروايات حتى كاد صفو التفسير أن يتكدر بتلك الروايات لولا أن قيض لها جهابذة نقاد هذه الأمة فبينوا زيفها، وكشفوا غوارها كما نبهوا على خطر الوضع وبينوا صحيح السنة من المكذوب المختلق بقدر طاقتهم البشرية حفظاً لهذا المصدر الصافي من أن يشوب تفسيره كدر الكذب والاختلاق فجزاهم الله عن أمة محمد ﷺ خيراً(١).

المبحث الثامن: التشجيع بالحوافز المادية والمعنوية:

إن للحوافز المادية والمعنوية دوراً كبيراً في إشعال الهمم وفتح القرائح وتوسيع دائرة التنافس والإبداع، وقد ذكر الله عز وجل حوافز معنوية ومادية لأهل القرآن، فجعلهم محل اصطفائه، وأهلاً لنزول دار كرامته فقال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٢ – ٣٥]؛ فاصطفاء الله للذين أورثهم الكتاب هو الفضل الكبير

(١) ممن نبه على كثير من الإسرائيليات والموضوعات ونقدها سنداً ومتناً الحافظ ابن كثير في تفسيره، كما نبه على خطرها ومصادرها الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه القيم التفسير والمفسرون (١/١٦٥-٢٠٠)، وقد ألف شيخ شيوخنا العلامة الدكتور محمد محمد أبو شهبة كتاباً في الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، وهذه الكتب الثلاثة كلها مطبوعة متداولة معروفة.

الذي لا فضل يدانيه، قال الطاهر بن عاشور: « والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إلى الاصطفاء المفهوم من﴿ٱصْطَفَيْنَا﴾أو إلى المذكور من الاصطفاء وإيراث الكتاب، والفضل الزيادة في الخير، والكبير مراد به ذو العظم المعنوي وهو الشرف..، وهذا الفضل مراتب في الشرف كما أشار إليه تقسيم أصحابه إلى: ظالم لنفسه، ومقتصد وسابق، وضمير الفصل لتأكيد القصر الحاصل من تعريف الجزأين، وهو حقيقي؛ لأن الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بذلك؛ لأن كل فضل هو غير كبير إلى ذلك الفضل، ووجه هذا الانحصار أن هذا الاصطفاء وإيراث الكتاب جمع فضيلة الدنيا وفضل الآخرة »(١).

قلت: اصطفاء الله عز وجل منــزلة عظيمة امتن الله بها على رسله فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وأثنى بها على بعض أنبيائه والصالحين من عباده فنالوا بذلك الشرف العظيم، والخير العميم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٣٣] .

والاصطفاء صفة تستوجب من المنعم عليه بها الشكر بالقول والعمل قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[آل عمران: ٤٢ – ٤٣]، وقال لموسى بعد أن أكرمه بكلامه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأعراف: ١٤٤]، وجعل الاصطفاء أهم المؤهلات التي أهلت طالوت لقيادة بني إسرائيل فقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٢/٣١٤.

قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

ومن اصطفاه الله كان أهلاً لأن يتبع وأن يكون إماماً لا يرغب عن طريقه إلا من سفه نفسه قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

فالمصطفون هم القدوة وهم الأخيار الذين يحرص على سلوك سبيلهم، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٥ – ٤٧] ، ولهم من الله السلام قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[النمل:٥٩] ، وأي شرف للعبد أعظم من أن يكون له من الله السلام، وهو عنده من المصطفين الأخيار؟

والاصطفاء وإن كان عاملاً معنوياً فإنه يتضمن الحوافز المادية؛ لأن من اصطفاه الكريم أكرمه، وأدناه وقربه، على أن آية اصطفاء أهل القرآن قد ذكرت الحوافز المادية الأخروية فذكر الله فيها مآل المصطفين على اختلاف طوائفهم فقال: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[فاطر:٣٣ – ٣٥]، فهذه كرامتهم على اختلاف مراتبهم، وذلك هو الحافز الذي ينبغي أن يتنافس عليه المتنافسون؛ وهو الحافز الذي يستحق أن يشيد به الكريم؛ لأنه العطاء الذي لا يعتبر العطاء الفاني

بإزائه عطاء؛ لذا نرى الله عز وجل حث على التنافس فيه فقال- بعد أن ذكر ما أعد لأهل دار كرامته من نزل كريم-: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[المطففين: ٢٦].

وقد امتن الله عز وجل على رسوله ﷺ وكل من يصلح له الخطاب من أمته بهذا القرآن ، وجعله النعمة التي لا تعدلها نعمة من متع الحياة الفانية فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ [الحجر: ٨٧ – ٨٨]، قال الإمام سفيان بن عيينة: « هذه الآية أمر بالاستغناء بكتاب الله عن جميع زينة الدنيا »(١).

وقال الحافظ أبو بكر بن العربي- في تفسيره لهذه الآية- : « والمعنى: قد أعطيناك الآخرة فلا تنظر إلى الدنيا، وقد أعطيناك العلم فلا تتشاغل بالشهوات وقد منحناك لذة القلب فلا تنظر إلى لذة البدن، وقد أعطيناك القرآن العظيم فتغن به، فليس منا من لم يتغن بالقرآن(٢)، أي ليس منا من رأى بما عنده من القرآن أنه ليس بغني حتى يطمح ببصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى»(٣)، وقد تقدم لنا أكثر من مرة أن خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته، فهذا

(١) جامع البيان للطبري ١٢٧/١٤، والمحرر الوجيز لابن عطية ٣٥٣/٨.

(٢) يشير إلى حديث: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**»، أخرجه البخاري في صحيحه - (كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ح ٧٥٢٧)- من حديث أبي هريرة ﷺ، والتغني في الحديث فسر بالاستغناء به ، وفسر بتحسين الصوت ، وتفسيره بالاستغناء جاء عن سفيان في طريق من طرق حديث أبي هريرة عند البخاري في (كتاب فضائل القرآن ، باب من لم يتغن بالقرآن ، ح ٥٠٢٤) ، حيث قال سفيان : " وتفسيره :يستغني به "، وجاء عن عن وكيع من حديث سعد بن أبي وقاص عند الإمام أحمد في المسند (١٧٢/١ح١٤٧٦) .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١١٣/٣

الامتنان بإيتاء السبع المثاني والقرآن العظيم وإن كان للنبي ﷺ فهو لكل من يصلح له الخطاب من أمته، فكل من أوتي السبع المثاني والقرآن العظيم مدعو إلى الاستغناء بذلك، واعتباره النعمة التي كل نعمة بجانبها صغيرة حقيرة.

وقد أشاد النبي ﷺ بمكانة أهل القرآن ومنزلتهم فأخبر بأنهم خير هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس فقال ﷺ: ((**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**)) [(١)]؛ فكانوا خياراً من خيار، وترجم النبي ﷺ ذلك واقعاً عملياً فجعل الصدارة لأهل القرآن فقال: ((**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله**)) [(٢)]،وكان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: ((**أيهم أكثر أخذا للقرآن فإذا أشير له إلى أحد قدمه في اللحد**))[(٣)]، وقال للذي لم يجد مهراً لامرأة أراد زواجها: ((**زوجتكها بما معك من القرآن**))[(٤)].

وعقل أصحابه رضي الله عنهم معنى هذا التقديم ومغزاه فأقبلوا يتنافسون في حفظ القرآن الكريم وفهمه، وعرفوا لأهله مكانتهم؛ فعن أنس ﷺ قال: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ في أعيننا» [(٥)]، وإذا كان ذلك شأنهم مع من قرأ البقرة وآل عمران فما ظنك بشأنهم مع من حفظ القرآن

---

(١) صحيح البخاري ح ٥٠٢٧.

(٢) صحيح مسلم ح ٦٧٣.

(٣) صحيح البخاري ح ٤٠٧٩.

(٤) صحيح البخاري ح ٥٠٢٩.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٢١/١) وهو على شرط الشيخين ، وأصله في الصحيحين من قصة رجل كان يكتب الوحي ثم تنصر ، ولكن ما في الصحيحين ليست فيه هذه الزيادة (انظر صحيح البخاري ح ٣٦١٧ ، وصحيح مسلم مع شرح النووي ١٢٧/١٧).

كله ورزق الفهم فيه؟! إن تقديرهم له أشد وشأنه في نفوسهم أعظم، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كان يصطفى لمجلسه القراء ويجعلهم أهل مشورته ومحل ثقته وتقديره؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً..»(١)، وأي حافز معنوي أكبر من أن يجعل الأمير القارئ من أهل مشورته الذين لا يقدم على أمر إلا باستشارتهم؟!

و لم يكتف عمر ﷺ بهذا الحافز المعنوي بل كتب إلى أمراء الأجناد : « أن ارفعوا إلي كل من حمل القرآن حتى ألحقهم بالشرف من العطاء وأرسلهم في الآفاق يعلمون الناس» (٢)؛ فجمع لأهل القرآن بين الحافز المادي وهو الشرف من العطاء، والحافز المعنوي هو إرسالهم إلى الآفاق سادة يعلمون الناس.

وكتب هارون الرشيد -رحمه الله- إلى الولاة وإلى أمراء الأجناد يقول لهم: « أما بعد فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلماء ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر فاكتبوه في أربعة آلاف دينار، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم فاسمعوا لهم وأطيعوا أمرهم

---

(١) أخرجه البخاري صحيحه : كتاب التفسير ، باب ٧ سورة الأعراف ح ٤٦٤٢.

(٢) أخرجه ابن زنجويه عن كنانة العدوي كما في كنز العمال-(١/ ٢١٧)- ، وذكره الكاندهلوي في حياة الصحابة-(٣/٢٠٨-٢٠٩)- نقلا عن صاحب الكنز.

فإن الله تعالى يقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وهم العلماء »[(١)]، قال ابن المبارك- بعد ذكر هذا الخبر- : « فما رأيت عالماً ولا قارئاً للقرآن ولا سابقاً إلى الخبرات ولا حافظاً للحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ والخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، ولقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثماني سنين»[(٢)].

وهكذا نجد الحوافز المعنوية والمادية كانت وراء نهضة القرآن الكريم وعلومه حفظاً وفهماً في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين وصالحي ولاة المسلمين من بعدهم، فكان الأخذ بهذا الأسلوب هو طريقة القرآن وسنة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، ونحن اليوم بأمس الحاجة إلى تشجيع الشباب على دراسة القرآن وعلومه والعلوم الإسلامية بعامة بكل وسائل التشجيع والحوافز المادية المعنوية؛ فإن الشباب مغرم بالتقدير.

المبحث التاسع: التدرج

التدرج سنة من سنن الحياة فالمولود يولد صغيراً ثم يكبر رويداً رويداً حتى يبلغ كماله المقدر له، والإنسان لا يولد عالماً، ولكنه قد زود بأدوات اكتساب المعارف فهو يترقى في المعارف شيئاً فشيئاً؛ إذ هي نمو عقلي معرفي يتدرج فيه الإنسان كما يتدرج في نموه الجسدي، ومن حكم نزول القرآن منجما أخذه بتدرج ليكون ذلك أيسر لحفظه وفهمه والعمل به قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١٧٥/٢، وهكذا فلنحفظ القرآن محمد مصطفى شعيب (ص ٣٠٩).
(٢) انظر المصدرين السابقين.

عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾[الإسراء:١٠٦]، "ومعنى﴿ فَرَقۡنَٰهُ ﴾جعلناه فرقاً، أي أنزلناه منجماً مفرقاً غير مجتمع، يقال : فرق الأشياء إذا باعد بينها، ويطلق على البيان؛ لأن البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة، فيكون﴿ فَرَقۡنَٰهُ ﴾ محتملاً معنى بيناه وفصلناه، وإذ كان قوله: ﴿وَقُرۡءَانٗا ﴾ حالاً من ضمير﴿ فَرَقۡنَٰهُ ﴾، آل المعنى إلى أنا فرقناه وأقرأناه، وقد علل بقوله: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ ﴾ [الإسراء:١٠٦] فهما علتان: أن يقرأ على الناس، وتلك علة لجعله قرآناً، وأن يقرأ على مكث أي مهل وبطء وهي علة التفريق، والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين"(١).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٢ – ٣٣]، فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل هذا القرآن مفرقاً مرتلاً وذكر من حكمة ذلك التنجيم تثبيت فؤاد النبي ﷺ بتجدد الوحي والصلة بالسماء، وإجابة الأسئلة المتجددة، وقد عقل أصحاب النبي ﷺ مكانة التدرج في فهم القرآن والعمل به فكانوا يأخذونه خمساً خمساً(٢) وعشراً عشراً حتى تعلموا ما فيه وعملوا به؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٣١/١٥ ، وانظر :محاسن التأويل للقاسمي ٢٠٨/١٠-٢٠٩.

(٢) أخرج البيهقي في شعب الإيمان – (٣٤٦/٣-٣٤٧)- عن عمر رضي الله عنه قال : " تعلموا القرآن خمسا خمسًا فإن جبريل نزل القرآن على النبي ﷺ خمسًا خمسًا " قال علي بن بكار – أحد رواة الأثر عند البيهقي – : قال بعض أهل العلم من تعلم خمسًا خمسًا لم ينسه.

لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»[1]، وعن أبي عبد الرحمن السلمي -رحمه الله- قال : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا»[2]، وأخرج مالك في الموطأ أنه بلغه: « أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها»[3]، قال الإمام الزرقاني-معلقًا على هذه الرواية-:« ليس ذلك لبطء حفظه معاذ الله؛ بل لأنه كان يتعلم فرائضها وأحكامها وما يتعلق بها»[4].

وإذا كانت سنة التدرج هي التي نزل بها القرآن فإن هذه الآثار تعطينا منهج التدرج الذي تلقى به أصحاب رسول الله ﷺ القرآن حتى تعلموا العلم والعمل جميعاً، فما أحوج طالب التفسير إلى الأخذ بهذا المنهج الذي تعلم به أصحاب رسول الله ﷺ القرآن.

وإذا كان هذا منهج الصحابة رضي الله عنهم في أخذ القرآن وتلقيه وهم أهل اللسان وقد شاهدوا من أسباب النزول ووقائع الأحكام ما يعينهم على فهم القرآن فكيف بمن بعدهم ممن لم يحصل له من دواعي الفهم ما حصل لهم؟! إنه بلا شك أحوج لهذا المنهج، بل الأخذ به سنة لعزو الصحابة ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ ولأنه فعل أصحاب رسول الله ﷺ الذين هم لنا سلف

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٣٥/١،وصحح إسناده الحويني في تحقيقه لتفسير ابن كثير ١١٤/١.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ٣٦/١،وصحح إسناده الحويني في تحقيقه لتفسير ابن كثير١١٤/١-١١٥.

(٣) الموطأ للإمام مالك بن أنس ٢٠٥/١ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(٤) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك بن أنس ٢٧/٢.

وقدوة، وقد يدخل في هذا المعنى التدرج في كتب التفسير كأن يبدأ بالكتب التي تشرح المفردات ثم الكتب التي تفسر الآية أو الآيات بعبارة موجزة دون التوسع في المباحث ذات العلاقة، وهكذا حتى يصل لدراسة المطولات، وأنصح الدارس للتفسير بالتأمل الذاتي قبل النظر في كتب المعاني والتفسير وذلك بأن يحدد المقطع الذي يريد دراسته ثم يسجل فهمه الذاتي في ذلك المقطع ثم ينتقل إلى كتب معاني القرآن وتفسيره ليرى أين موقع فهمه مما ذكرته، فإن كان موافقاً أو مقارباً حمد الله على ما وفقه له من الفهم الذي ضارع فيه كبار العلماء وإن كان فهمه خاطئاً كان الصواب الذي يتوصل إليه أكثر علوقاً بذهنه.

المبحث العاشر: العمل بالقرآن:

إن العمل بالقرآن الكريم من أهم وسائل فهمه وترسيخ معانيه في النفوس، وفقهه حق فقهه قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] ، فالطائفة المتفقهة هي الطائفة النافرة، على ما قاله الحسن البصري وغيره(١)، وهو الذي رجحه الطبري(٢)، وقال ابن عطية: « التفقه هو من النافرين، والإنذار هو منهم ، والضمير في رجعوا لهم أيضاً » (٣).

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٤/٥٧١-٥٧٤، والمحرر الوجيز لابن عطية ٨/٣٠٠-٣٠١.
(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٤/٥٧٤.
(٣) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٨/٣٠٠.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالطائفة النافرة الطائفة التي تبقى مع رسول الله ﷺ حين يبعث السرايا(١)، ولكن هذا القول يعكر عليه أن النفرة لا تطلق إلا على المتحرك لا القاعد، فلا يوصف القاعد بالنفرة والرجوع، والفقه في الدين وليد الحركة به، وما جاء الفقه الإسلامي إلا من حركة الحياة وتعاملات الناس وتبادلاتهم، والتجربة العملية تثبت أن الذي يتحرك بعلم فيعلمه للناس ويدعوهم إليه قولاً وعملاً يكون أكثر له فهماً واستيعاباً، ويمر به من المواقف ما يستدعي منه البحث عن أمر القرآن في تلك المواقف، فيبحث فيزداد علماً وفقهاً وفهماً، على أن العمل بالشيء يرسخ معناه في الذهن ويجليه ألا ترى أن الشخص الذي أدى فريضة الحج يكون أكثر فهماً لأحكامه التي شاهدها وطبقها ممن لم يشاهد ذلك ولا طبقه وإنما قرأه نظرياً ؟

وقد بين المودودي رحمه الله أن العمل بالقرآن الكريم من أهم وسائل فهمه وأجاد في الكشف عن معنى ذلك وتقريره فقال : « ومهما يتخذ الإنسان من التدابير ويستخدم من الوسائل لفهم القرآن فإنه لا يصل إلى جوهر القرآن وروحه كما ينبغي ما دام هو لا يعمل وفق ما جاء به القرآن، إن القرآن ليس يحوي نظريات مجردة وأفكاراً محضة حتى تدرسه جالساً على الأريكة ثم تفهم جميع مطالبه ... لا تستطيع أن تفهم مطالب القرآن ومعانيه البعيدة الغور إلا حين تحكم هذا الكتاب وتبدأ بالدعوة إلى الله تعالى، وتخطو جميع خطواتك كما يوجهك وكيفما يعلمك، ومن هنا لا بد أن يستقبلك

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٤/٥٧١-٥٧٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي١٠/٤٣٠

جميع ما استقبل حامليه من التجارب والمحن: تشاهد مشاهد مكة، والحبشة، والطائف، وتواجه المراحل الممتدة من بدر إلى حنين إلى تبوك، وتتشابك مع (أبي جهل) ، (وأبي لهب) ، وتلاقي المنافقين واليهود ، وترى وتختبر كل النماذج الإنسانية ماراً بالسابقين الأولين إلى المؤلفة قلوبهم... لا يستطيع الإنسان أن يدرك مغزى أحكام القرآن وتعاليمه الخلقية وتوجيهاته الاقتصادية والمدنية ومبادئه ونظمه في مختلف نواحي الحياة ما دام لا يطبقها في الحياة ، لا يدرك مغزاها فرد يعيش في حل منها في حياته الفردية ، ولا تدركه أمة تسلك جميع مؤسساتها الاجتماعية مسلكاً يخالف منهجها » [(١)].

نعم إن القرآن الكريم كتاب هداية وعبادة وحياة وعمل لا يفقهه إلا من تحرك به كما تحرك به من أنزل عليه وبينه للناس أحسن بيان ؛ فبينه بقوله وعمله، والدعوة إليه والجهاد لإعلاء مبادئه والتخلق بأخلاقه.

---

(١) مبادئ أساسية لفهم القرآن لأبي الأعلى المودودي (ص ٥٢-٥٦).

الفصل الثاني : الوسائل المعنوية

وفيه خمسة مباحث :

لقد ذكر الله عز وجل وسائل معنوية ، تعين على فهم القرآن الكريم بل لا يتأتى فهمه بدونها، وألخص القول في تلك الوسائل في المباحث الآتية:

المبحث الأول: الإيمـــــان

إن للإيمان نوراً يستضاء به، يفتح العيون والأذهان، وينير القلوب والأفكار والبصائر؛ قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، و"هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً أي في الضلالة فأحياه الله أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه ووفقه لاتباع رسله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف به، والنور القرآن كما رواه العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال السدي الإسلام، والكل صحيح"(١).

وأنا في هذا المقام لا أريد بيان أركان الإيمان وشُعَبه وقضاياه؛ فذلك مقـــام يطول الكلام فيه، ولا أتصور مؤمناً يتصدى لفهم القرآن الكريم والاستنباط منه

(١) تفسير ابن كثير ١٧٨/٢، وانظر فيما حكاه عن ابن عباس من رواية العوفي ، وعلي ابن أبي طلحة، وما حكاه عن السدي : جامع البيان للطبري ٩١/١ ، ورواية علي ابن أبي طلحة من أصح الرويات في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما كما هو معلوم ، عند أهل هذا الشأن فلا نطيل بالتدليل عليه، وليراجع من أراد تفصيل ذلك مقدمة العجاب للحافظ ابن حجر (٢٠٦/١-٢٠٧)، وأما رواية العوفي عن ابن عباس فضعيفة جداً ، وقد بين الكلام فيها وفي رواة طرقها أحمد شاكر في تحقيقه لجامع البيان للطبري (٢٦٣/١-٢٦٤).

وهو لم يحكم ذلك بعد، وإنما الذي أريده في هذا المقام هو أن يتيقن المؤمن يقينًا لا مرية فيه أن هذا القرآن حق نزل بالحق من عند الحق جل جلاله، وأن الهداية والسعادة في الدنيا والآخرة في اتباعه، والخسران والهلاك والتعاسة في الدنيا والآخرة في الإعراض عنه؛ قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء: ١٠٥] أي" وبالحق أنزلنا هذا القرآن نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة والأمور الحسنة الحميدة، وننهى فيه عن الظلم والأمور القبيحة والأخلاق الرديئة والأفعال الذميمة، ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي وبذلك نزل من عند الله على نبيه ﷺ "(١).

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن النجاة في الدنيا والآخرة في التمسك بهذا الحق الذي نزل من عنده سبحانه، وأن الشقاء في الدنيا والآخرة في الإعراض عنه قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾[طه: ١٢٣- ١٢٧]، المعنى: "فإما يأتينكم مني رسول أرسله إليكم وكتاب يأتي به رسول فمن اتبع هداي أي آمن برسلي وصدق بكتبي وامتثل ما أمرت به واجتنب ما نهيت عنه على ألسنة رسلي فإنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنه كان عاملاً بما يستوجب السعادة من طاعة الله تعالى، وطاعة رسله"(٢).

---

(١) جامع البيان للطبري ١٥/١٧٨.

(٢) انظر أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٤/٥٩٤

وأما المعرض عن الذكر فمعيشته ضنك أي ضيق وشقاء وإن بدا للناظر في أنعم عيش وأرغده فإنه ضيق الصدر، سيئ الظن بالله يخاف على ما في يده من متاع، قد أقض مضجعه ألم الحيرة والبعد عن الله، وهو في الآخرة في عمى جزاء إعراضه عن آيات الله، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

والقرآن الكريم لا يقف بأتباعه عند حد العلم بأنه الحق وأن السعادة في الدنيا والآخرة في اتباعه والشقاوة في الدنيا والآخرة في الإعراض عنه بل يتعدى ذلك ليجعل الأخذ بهديه- الذي هو فرع فهمه- مصدر فخر واعتزاز قال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف: ١ – ٢] ، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله- : « ومعلوم أنه ﷺ لا يفعل شيئا من ذلك-يعني لا يضيق بالتبليغ ولا يشك فيما أنزل إليه-ولكن الله يخاطبه ليوجه الخطاب إلى غيره في ضمن خطابه ﷺ » (١).

وقد ذكر ابن القيم-رحمه الله- أنواعاً من هذا التحرج مبيناً أن القرآن لا يفهمه إلا من آمن بأنه كلام الله حقاً ولم يكن في نفسه منه حرج، فقال: « لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قبله منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ففي قلبه منه حرج..، ومن سلط عليه آل الآرائيين وهذيان المتكلمين وسفسطة المسفسطين وخيالات المتصوفين ففي قلبه منه حرج، ومن جعله تابعاً لنحلته

(١) أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٢/٢٥٥.

ومذهبه وقول من قلده دينه ينـــزله على أقواله ويتكلف حمله عليها ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعـــه ويـــسلم وينقاد لحكمه أين كان ففي قلبه منه حرج، ومن لم يأتمر بأوامره وينـــــزجر عن زواجره ويصدق جميع أخباره ويحكم أمره ونهيه وخبره ويرد له كل أمـــر ونهي وخبر خالفه ففي قلبه منه حرج، وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجـــده الصحابة ومن تبعهم »(١)؛ فهذا القرآن لا يفهمه حق فهمه إلا من آمن بـــه وبمن أنزله وبمن أنزل عليه، إيماناً لا يخالطه شك ولا ريب، إيماناً لا يـــدع في القلب حرجاً من اتباعه والاهتداء بنوره، إيماناً يطهر القلب ويصلح المحل لتلقي هذا النور، وأما القلوب المظلمة النجسة التي أظلمها ولوثها الكفر والنفاق فلا تصلح محلاً لهذا النور، قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الأنعام: ٢٥].

المبحث الثاني : التـــقـــوى:

التقوى هي : فعل الأوامر واجتناب النواهي؛ إذ أصلها من الوقاية فمـــن امتثل الأوامر واجتنب النواهي كان ذلك وقاية بينه وبـــين عـــذاب الله عـــز وجل(٢)، وعرفها طلق بن حبيب-رحمه الله- فقال: « التقوى عمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله والتقوى ترك معصية الله مخافة عقـــاب الله ،

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ١/٩٩، ومعالم التنـــزيل للبغوي ١/٦٠.

على نور من الله »[1]،قد عرفت بتعريفات كثيرة كلها متقاربة وإن كان بعضها أوعب من بعض إلا أنها بمجموعها تدل على أن التقوى فعل ما أمر الله به طاعة لله وعلى بينة من شرع الله؛ رجاء ثواب الله عز وجل، وترك ما نهى عنه على بينة مما شرع خوفا من عقابه، والرجاء والخوف في ذلك هما دليل الإخلاص لله عز وجل.

ومما يدل على أن التقوى وسيلة لفهم كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فهذا:"وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه أي يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه"[2]، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[الأنفال:٢٩] "والمعنى:أنه يجعل لهم من ثبات القلوب وثقوب البصائر وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس"[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ – ٣] وقوله : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾[الطلاق: ٤]، والفهم في كتاب الله عز وجل رزق ومنحة يفتح الله بها على من يشاء من عباده، وتيسير ذلك داخل في تيسير الأمر الموعود به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف- (١٩٠/٧)- عن يحي بن آدم عن سفيان عاصم قال: قلنا لطلق بن حبيب صف لنا التقوى فقال: فذكره، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء- (٦٠١/٤)- من طريق عاصم الأحول عن أبي بكر المزني عن طلق به.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٠٦/٣.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٣٠٠/٢.

ﵟٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗاﵞ[الطلاق: ٤] والمؤمن الصادق لا أمر عنده أهم من الفهم عن الله عز وجل.

المبحث الثالث: استشعار عظمة الخطاب:

القرآن الكريم كلام الله عز وجل خالق الكون، ومدبر أمره، أنزله على أفضل خلقه، وختم به رسالاته، وإذا كان الكلام يشرف بشرف قائله والمخاطب به، وإصابته الحق والحكمة، وعلوه على غيره مما يوصف بأنه من جنسه، فأي كلام أولى بالشرف من كلام الله العليم الحكيم الخبير، المنـــزل على أشرف خلقه، المهيمن على الكتب كلها، المعجز المتحدى به؟!

فالقرآن الكريم قد جمع صفات الكمال والشرف والرفعة ، فهو تنـــزيل من رب العالمين، مع ملك مقرب قوي أمين، على أشرف رسول، بأفصح لسان، وابتدئ إنزاله في أشرف زمان ومكان، قال تعالى: ﵟوَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖﵞ [الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥]، صانه الله من عبث العابثين وتحريف المبطلين قال تعالى: ﵟإِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَﵞ [الحجر: ٩]، وقال: ﵟوَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖﵞ[فصلت: ٤١ – ٤٢]، وأعلى الله مكانته فقال تعالى: ﵟإِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَﵞ[الواقعة: ٧٧ – ٨٠]؛ فأوجب الطهارة للمسه، فكان في ذلك أعظم الدلالة على عظيم منـــزلته، وإدراك المرء لهذه الحقيقة أكبر معين له على الجد والاجتهاد وبذل الوسع لفهم هذا الكتاب الذي هذه منـــزلته.

وقد ضرب سلف هذه الأمة أروع الأمثلة في ميدان التسابق إلى علم كتاب الله عز وجل واسترخصوا في سبيل ذلك كل غال ونفيس؛ فحصلوا ما علموه من ذلك واعتذروا عما لم يعلموا أن لو علموا من يعلمه لنالوه مهما كلف ذلك من تضحية؛ فهذا ابن مسعود ﷺ يقول: « والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه »[1].

وهذا أبو الدرداء ﷺ يقول: « لو أعيتني آية من كتاب الله عز وجل فلم أجد أحداً يفتحها علي إلا رجلاً ببرك الغماد لرحلت إليه »[2]، قال أبو عبيد-بعد أن أخرج هذا الأثر-: « وبرك الغماد أقصى حجر باليمن »[3].

وهذا مجاهد بن جبر رحمه الله يقول : « عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها »[4].

ولم يزل ذلك دأب علماء هذه الأمة ونجبائها؛ فإن المتصدين منهم لتفسير كتاب الله تعالى قد طفحت تراجمهم بالكشف عما كانوا عليه من الجد والتشمير وصرحوا في مقدمات كتبهم بأن الاشتغال بتعلم كتاب الله تعالى كان أهم ما أنفقوا فيه أعمارهم، وأعملوا فيه أفكارهم، داعين غيرهم إلى

(١) صحيح البخاري ح ٥٠٠٢، وصحيح مسلم ح ٢٤٦٣.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٤٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

سلوك ذلك السبيل الذي سلكوه وانتهاج النهج الذي نهجوه؛ فهـذا إمـام المفسرين أبو جعفر الطبري -رحمه الله- يقول: « اعلموا عباد الله أن أحق ما صرفت إلى علمه العناية وبلغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضا، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وأن أجمع ذلك لباغيه كتاب الله الـذي لا ريب فيه، وتنـزيله الذي لا مرية فيه، الفائز بجزيل الذخر وسنى الأجر تاليه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنـزيل من حكيم حميد » [١].

ويقول ابن عطية في مقدمة تفسيره : « فلما أردت أن أختار لنفسي وأنظر في علم أعد أنواره لظلم رمسي سبرتها بالتنويع والتقسيم، وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم، فوجدت أمتنها حبالاً وأرسخها جبالاً وأجملها آثاراً وأسطعها أنواراً علم كتاب الله جلت قدرته ، وتقدست أسماؤه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنـزيل من حكيم حميد.. وأيقنت أنه أعظم العلوم تقريبا إلى الله تعالى.. ورجوت الله تعالى أن يحرم على النار فكراً عمرته أكثر عمره معانيه ، ولساناً مرن على آياته ومثانيه ، ونفساً ميزت براعة رصفه ومبانيه، وجالت في مباديه ومعانيه ، فثنيت إليه عنان النظر ، وأقطعته جانب الفكر، وجعلته فائدة العمر ، وما ونيت – علم الله – إلا من ضرورة بحسب ما يلم في هذه الدار من شغوب ، ويمس من لغوب ، أو بحسب تعهد نصيب من المعارف » [٢].

---

(١) جامع البيان للطبري ١/٥.

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ١/٢-٥ .

ويقول محمد بن جزي الكلبي: « أما بعد فإن علم القرآن الكريم هو أرفع العلوم قدرا، وأجلها خطرا، وأعظمها أجرا، وأشرفها ذكرا، وإن الله أنعم علي بأن شغلني بخدمة القرآن وتعلمه وتعليمه، وشغلني بتفهم معانيه وتحصيل علومه، فاطلعت على ما صنف العلماء رضي الله عنهم في تفسير القرآن من التصانيف المختلفة الأوصاف ،والمتباينة الأصناف .. »[1].

وغير هؤلاء - ممن كتبوا في تفسير القرآن وعلومه وقراءاته وإعرابه ومعانيه وأشادوا في مقدمات كتبهم بمكانة هذا القرآن وعظمته في نفوسهم- كثير، ولولا خشية الإطالة ومظنة الخروج عن القصد لضربت لذلك أمثلة من كل قرن وفي كل نوع من التآليف المختصة بالقرآن الكريم وعلومه ، على أننا لو رجعنا إلى تراجم هؤلاء الذين ذكرنا طرفًا من مقدمات كتبهم وغيرهم ممن أعرضنا عنه خشية الإطالة لوجدنا أنهم كانوا على درجة عالية من الذكاء والجد في طلب العلوم منقولها ومعقولها، ويهون عليهم من صعوبة الطريق وعقباته أنهم بهذه الموهبة وتلك العلوم يرتقون من السلم المعرفي الدرجة التي تمكنهم من النظر في هذا الكتاب العزيز والعيش في رحابه.

فعلى طالب التفسير المجد في تحصيله أن يسلك سبيلهم، وأن يجد في طلب العلوم التي تساعده على فهم القرآن الكريم طلبهم ، وأن يدرك أن هذا القرآن عزيز لا تفتح أسراره ولا ينال علمه وفهمه بنوم الضحى وأحلام اليقظة.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١/٢-٣.

المبحث الرابع: استشعار خصوصية الخطاب:

ونعني باستشعار خصوصية الخطاب أن يقدر المرء أنه المخاطب بهذا القرآن، ويستشعر معنى الحضور في ضمير الخطاب مفرداً كان أو جماعة، فعند ما يسمع قول الله مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام: ١٠٦]، وقوله: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩]، وقوله: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢]، وقوله : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[الزخرف : ٤٣ – ٤٤]؛ يستشعر أن هذا الخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فهو داخل فيه، والأمة كلها مخاطبة به؛ إذ خطابه ﷺ بأمر خطاب لأمته ما لم يقم دليل على تخصيصه بذلك الخطاب دون غيره كقوله تعالى:﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب:٥٠]، ولا مخصص هنا بل في هذه الآيات ما يدل على دخول كل من يصلح له الخطاب ألا تراه بدأ بضمير المخاطب المفرد وختم بضمير الجماعة في آية الأحزاب فقال : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢] ، وبدأ بضمير المخاطب المفرد في آيتي الزخرف فقال:﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ ﴾[الزخرف: ٤٣ - ٤٤]، وعطف بذكر قومه وختم بضمير الجماعة فقال: ﴿وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ، فهو ذكر له ولقومه، وكل من أرسل إليه فهو من قومه، وهو ومطالب بالاستمساك بهذا القرآن، وهو ذكر له وسوف يسأل عنه ، على أن هذا الأمر الوارد بالاتباع هنا بصيغة خطاب النبي ﷺ ورد مثله بصيغة خطاب الجماعة التي كل من

يصلح له الخطاب هو أحد أفرادها فقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأنعام: ١٥٥]، وقال: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ٣]، فوصف القرآن بأنه منـــزل إلى الجماعة وهي مأمورة باتباعه، كما وصفه بأنه منـــزل على رسول الله ﷺ مأمور باتباعه، فلم يبق إلا أن يستشعر المرء خصوصية الخطاب من خلال خطاب رسول الله ﷺ؛ إذ خطابه خطاب لأمته، ومن خلال خطاب الجماعة إذ هو فرد من أفرادها.

وقد ضرب رسول الله ﷺ والرعيل الأول المثل الأعلى في الشعور بهذه الخصوصية، فهذه عائشة رضي الله عنها تحيل في خلق رسول الله ﷺ على القرآن فتقول – عند ما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ– : ((**كان خلقه القرآن**))[1]، وهذا ثابت بن قيس خطيب رسول الله ﷺ المدافع عنه وعن دعوته باللسان والسنان يستشعر أنه المعني بقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[الحجرات:٢] فيعتزل في بيته بعد نزولها باكياً حزيناً يرى أن عمله قد حبط لمجرد أنه كان جهوري الصوت، وإن كان ذلك طبعه و لم يكن يقصد تعمده عند رسول الله ﷺ؛ فقد أخرج الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل يا رسول الله أنا أعلم لك علمه فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه فقال له ما شأنك ؟

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح٧٤٦).

فقال: شر كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار فأتى الرجل النبي ﷺ فاخبره أنه قال كذا وكذا فقال موسى- ابن أنس الراوي عنه- : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: ((**اذهب فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة**))[١]، ولما نزلت هذه الآية كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد نزولها إذا حدث رسول الله ﷺ بحديث حدثه كأخي السرار لم يسمعه حتى يستفهمه[٢].

وقد أحسن الحسن البصري في الثناء على الرعيل الأول بهذا المعنى فقال - مخاطباً الطبقة المشهود لها بالخير من التابعين وأتباعهم-: « إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملاً تركبونه فتقطعون به المراحل وإن من قبلكم رأوه رسائل إليهم من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار» [٣].

وقد أجاد الإمام أبو حامد الغزالي في الكشف عن مكانة استشعار خصوصية الخطاب في فهم القرآن الكريم فقال- معرفا استشعار خصوصية الخطاب ومكانته في فهم القرآن الكريم : « التخصيص: وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن إن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود، وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الحجرات ح٤٨٤٦ ، وصحيح مسلم ح(١٨٧) .

(٢) صحيح البخاري ح ٧٣٠٢.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية ٢٣/١.

إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي ﷺ وأمته، ولذلك قال تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[هود: ١٢٠](١)، فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى، وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة للعالمين؟؛ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال : ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾[البقرة: ٢٣١]، وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] ، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]،﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٣]، ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر : ٥٥] ،﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[الجاثية:٢٠] ، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٨] ، وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد فهذا القارئ الواحد مقصود فما له ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام: ١٩]، قال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله»، وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله

---

(١) هذا اقتصار منه على محل الشاهد والأفضل ذكر سياق الآية من أولها وهو قوله تعالى :﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠] .

ويعمل بمقتضاه »[(١)].

قلت: وهذا كلام نفيس لا مزيد عليه في هذا الباب، فمن تيقن أنه مخصوص بخطاب مولاه عمل جهده في استيعابه، والعمل به، ألا ترى أن أحدنا لو جاءه كتاب من أحد ملوك الدنيا لاحتفل به وسعى جهده للوقوف على ما أريد منه فيه، فإن كان أمياً بحث عمن يقرؤه له، وإن كان قارئاً وصعب عليه بعض معناه سأل عما أشكل عليه منه، وإن كان بغير لغته بحث عن مترجم؟ فما بالنا نفعل ذلك بكتب ملوك الدنيا الضعفاء الفقراء إلى الله ، ولا نفعله بكتاب ملك الملوك جبار السموات والأرض الكبير المتعال، المنعم بالخلق والرزق والنعم التي لا تدخل تحت عد ولا حصر لمن رام حصرها: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨]؟!.

المبحث الخامس: استشعار شمول القرآن:

إن الله عز وجل حين ختم بهذا الكتاب الرسالات وأنزله مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها جعله شاملاً لكل ما تحتاجه البشرية فيما بقي لها من رحلة الحياة، فأودعه من التشريع أحكمه وأصلحه وأعدله، ومن الأخلاق أجلها وأطهرها وأزكاها، وأجاب فيه عن كل التساؤلات التي حيرت العقلاءَ لو لم يهتدوا بهديه كالسؤال عن الكون وخالقه!، والإنسان ونشأته!، ولأي شيء أوجده خالقه؟ وماذا طلب منه؟ وما هي عاقبة أمره بعد

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ١/٢٥٣-٢٥٤.

رحلة الحياة الدنيا؟

ومسألة شمول القرآن من الأمور المسلمة إن لم تكن مما علم من الدين بالضرورة، اقتضاها كون القرآن آخر الرسالات، وناسخ كل الديانات، وقد نطق بها القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] ، قال ابن مسعود ﷺ : « أنزل في هذا القرآن كل علم، وكل شيء بين لنا في القرآن، ثم تلا هذه الآية »[(١)]، وقال الزمخشري: « فإن قلت: كيف كان القرآن تبياناً لكل شيء؟ قلت: المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصاً على بعضها، وإحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع رسول الله ﷺوطاعته، وقال :﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ - ٤] ، وحثاً على الإجماع في قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقد رضي الله لأمته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم[(٢)]، وقد اجتهدوا وقاسوا، ووطأوا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب فمن ثم كان تبياناً لكل شيء »[(٣)]،

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٤/١٦٠.

(٢) من ذلك قوله ﷺ :((**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**)) ، أخرجه: الإمام أحمد في المسند - (٤/١٢٦- ١٢٧) - ، وأبو داود في السنن - (٤/٢٠٠- ٢٠١ ح ٤٦٠٧)- ، وابن ماجة في السنن– (١/ ١٥- ١٧ ح ٤٢- ٤٤)- ، والترمذي في السنن – (٥/ ٤٣ ح ٢٦٧٦) - ،كلهم من حديث العرباض بن سارية، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح"- ، وصححه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٤١٨).

(٣) الكشاف للزمخشري ٢/١٢٨.

وقال علي رضي الله عنه: « ما من شيء إلا وعلمه في القرآن ولكن رأي الرجل يعجز عنه» (١)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: « إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين » (٢)، وقال مسروق بن الأجدع-رحمه الله-: « ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن ولكن علمنا قصر عنه » (٣)، وقال الإمام الشافعي-رحمه الله- : « فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها » (٤).

وقد توسع الإمام السيوطي -رحمه الله- في هذا المعنى ونقل فيه عن جمع من الأئمة حتى ذكر عن بعضهم بيان مأخذ كل علم من القرآن الكريم،كعلم الكلام، والفقه، والأصول واللغة والتاريخ، وحتى علم الطب والهندسة... (٥).

والذي يهمنا في هذا الباب هو أن إدراك المرء لشمولية هذا الكتاب العزيز أكبر معين له على فهمه، فما عليه إلا أن يتخذ الوسيلة التي تمكنه من إدراك

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٢٧/١.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن - (ص ٤١-٤٢) - ، والطبراني في الكبير - (١٤٥/٩-١٤٦برقم ٨٦٦٥،٨٦٦٤، ٨٦٦٦) - وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد - (١٦٥/٧)- ثم قال: رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح .

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٤٢).

(٤) الرسالة للإمام الشافعي (ص ٢٠).

(٥) انظر الإكليل للسيوطي – (ص ١١-٢٠)-،وقد نقل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي كلام السيوطي -في هذا الباب- فيالأضواء –(٣٠٦/٣-٣١٤)- بتمامه ثم قال: "انتهى كلام السيوطي من الإكليل، وإنما أوردناه برمته مع طوله؛ لما فيه من إيضاح أن القرآن فيه بيان كل شيء، وإن كانت في الكلام المذكور أشياء جديرة بالانتقاد تركنا مناقشتها خوف الإطالة المملة مع كثرة الفائدة في الكلام المذكور في الجملة".

حاجته من العلوم المساعدة، والصبر على البحث، وحسن التأمل والتدبر وطول الانتظار حتى يدرك حاجته التي لا يخالجه الشك في وجودها.

وقد اقترح المودودي على الباحث في القرآن الكريم في هذا المعنى اقتراحاً جميلاً فقال: « إذا أراد الإنسان أن يبين وجهة نظر القرآن في مسألة من مسائل الحياة فيستحسن له أن يطالع ما كتب فيها قديماً وحديثاً بكل إمعان، ويحدد بوضوح ما لهذه المسألة من نواح أساسية ونقاط رئيسية ويتعرف كذلك ما هو مبلغ تفكير الإنسان ومدى ما وصل إليه في هذه المسألة عبر التاريخ، وما هي جوانبها التي تتطلب حلولاً، وما هي النقطة التي لم يستطع التفكير الإنساني تخطيها حتى اليوم، وإذا حقق ذلك فله أن يدرس القرآن واضعاً أمام عينيه الجوانب التي تتطلب الحلول في هذه المسألة ، ومما جربته أن الإنسان إذا درس القرآن باحثاً في مسألة من المسائل على نحو ما ذكرت فإنه يفاجأ بالردود على أسئلته في آيات قد قرأها عشرات المرات من قبل و لم يخطر بباله أن تلك الآيات تكمن فيها هذه الردود »(1).

قلت: هذه طريقة جيدة ينبغي أن يسلكها كل مسلم في حياته كلها ليعلم أين هو من هذا الكتاب ، وهل يسير كما أراد الله ؟ أم أنه قد تنكب الطريق فيعاوده قبل أن تبعد الشقة ، كما يحتاجها.

---

(1) مبادئ أساسية لفهم القرآن الكريم لأبي الأعلى المودوي (ص ٥٢).

الخـــاتـــمـــة

وفي ختام هذا البحث فإني أرجو أن أكون قد وفقت لدراسة هذا الموضوع وإبراز حديث القرآن الكريم عن وسائل فهمه، وأختم الحديث عن هذا الموضوع بالنتائج والتوصيات الآتية:

أولاً: النتائج:

لقد توصلت من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:

١- أن القرآن الكريم تحدث عن وسائل لفهمه كثيراً ما أغفلها المتحدثون عن فهم القرآن الكريم وشروط مفسّره.

٢- أن هذه الوسائل التي تحدث عنها القرآن الكريم لا تقتصر على الوسائل المادية كالعلوم المساعدة بل تتعداها إلى وسائل معنوية كالإيمان والتقوى ونحو ذلك مما تناوله هذا البحث من وسائل.

٣- أن هذه الوسائل التي تحدثت عنها قد دلت عليها الآيات القرآنية دلالة ظاهرة واضحة لا لبس فيها، ولا غموض.

٤- أن كثيراً من الشروط التي وضعها بعض العلماء تعظيماً منهم لجناب القرآن وصوناً له من خوض كل خائض قد دخلها من المبالغة ما جعلها سبباً في صدود بعض طلاب العلم عن التوجه للقرآن الكريم وفهمه والاستنباط منه.

٥- أن تراثنا العلمي بعامة والتفسيري بخاصة مليء بالكنوز التي تحتاج من يسبر غورها ويستخرج دررها، فأنت ترى أن هذا الموضوع وإن كان جديداً في تبويبه وطرحه إلا أن مادته العلمية لم تغب عن علمائنا عند حديثهم عن تفسير هذه الآيات موضوع الدراسة.

ثانياً: التوصيات:

فيها أوصي المتخصصين في الدراسات القرآنية بعامة والتفسيرية بخاصة بما يلي :

١- التركيز على الدراسات الموضوعية فإنها تعطى للباحث الصورة الكاملة عن الموضوع كما تناوله القرآن الكريم، وتلك ميزة من شأنها أن تجعل الباحث يدرك صورة الموضوع إدراكاً كاملاً، وبقدر ما تكتمل الصورة لديه بقدر ما يكون أكثر له فهماً واستيعاباً.

٢- أن المتخصص في الدراسات التفسيرية يلزمه الاطلاع الواسع على العلوم المساعدة، والتي يأتي علم اللغة في مقدمتها، وبقدر توسع الباحث في اللغة وعلوم الآلة يكون حظه من الفهم لكتاب الله عز وجل.

٣- أن المتخصصين في الدراسات التفسيرية يلزمهم دخول مجال الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، والإلكتروني ليقربوا للناس فهم القرآن الكريم بأسلوب يناسب لغة العصر فإن لكل عصر لغته التي ينبغي أن يخاطب بها أهله.

وفي الختام أسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه وأن ينفع به كل من قرأه، وأن يجعله ذخراً لي يوم الدين إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ط: المكتبة الثقافية بيروت لبنان،١٩٧٣م وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني .

٣- أحكام القرآن للحافظ أبي بكر بن العربي المالكي، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط: دار الكتب العلمية .

٤- إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ ط: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار لزين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦هـ ، تاريخ الطبع لا يوجد على النسخة.

٥- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للقاضي أبي السعود محمد بن محمد العمادي المتوفى سنة ٩٥١هـ،ط: دار إحياء التراث العربي،بيروت لبنان،ط: الرابعة ١٤١٤هـ.

٦- أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ تحقيق الدكتور ماهر ياسين الفحل ، ط : دار الميمان.

٧- الإسرائيليات و الموضوعات في كتب التفسير تأليف العلامة الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ط/ مكتبة السنة الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٨هـ .

٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي المتوفى ١٣٩٣هـ ط:مكتبة ابن تيمية،بتاريخ ١٤١٣هـ.

٩- الإكليل في استنباط التنزيل لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ تحقيق سيف الدين عبد القادر ط:دار الكتب العلمية، ط:الأولى ١٤٠١هـ.

١٠- الإمامة والسياسة لابن قتيبة، تحقيق طه محمد الزيني ط:الحلبي.

١١- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن تأليف أبي البقاء عبد الله بن الحسين ابن عبد الله العكبري المتوفى سنة ٦١٦هـ طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

١٢- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ط/ دار المعرفة الطبعة الثانية .

١٣- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط: دار التراث بالقاهرة ، ط: الثانية،١٣٩٣هـ.

١٤- التبيان في آداب حملة القرآن لأبي زكريا يحي بن شرف النووي،المتوفى سنة ٦٧٦هـ، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، ط:دار نور المكتبات،١٤١٨هـ.

١٥- التبيان في أقسام القرآن للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر قيم الجوزية،المتوفى سنة ٧٥١هـ.

١٦- تحت راية القرآن للأديب مصطفى صادق الرافعي، ط:دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط: الثامنة ١٤٠٣هـ.

١٧- التحرير والتنوير للأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور التونسي ط/ دار سحنون للنشر والتوزيع تونس.

١٨- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للإمام جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف،ط:مطبعة السعادة بمصر.

١٩- التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي المتوفى سنة ٧٤١هـ،تحقيق عبد الرزاق المهدي،ط: دار إحياء التراث العربي،الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

٢٠- تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى ٧٧٤هـ ، تقديم الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي،ط دار المعرفة بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ١٤١٠٨هـ،وكذلك طبعة تحقيق الحويني في المجلد الأول.

٢١- تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين للحافظ عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٢٧هـ ، تحقيق أسعد محمد الطيب، نشر مكتبة الباز بمكة المكرمة ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ.

٢٢- تفسير النسائي للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي صاحب السنن المتوفى سنة ٣٠٣هـ تحقيق السيد صبري بن عبد الخالق الشافعي ، وسيد بن عباس الجليمي ، مركز السنة للبحث العلمي ط مكتبة السنة ، ط الأولى ١٤١٠هـ.

٢٣- **التفسير والمفسرون** للدكتور محمد حسين الذهبي طبعة دار الكتب الحديثة بمصر الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ.

٢٤- **تقريب التهذيب** للحافظ أحمد بن علي بن حجر المتوفى سنة ٨٥٢هـ،تحقيق محمد عوامة، ط:دار الرشد بسوريا سنة ١٤٠٦هـ.

٢٥- **التلخيص على مستدرك الحاكم** للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ مطبوع بهامش المستدرك ط:دار الكتب العلمية، ط:الأولى ١٤١١هـ.

٢٦- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ ط: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصرط: الثالثة ١٣٨٨هـ.

٢٧- **جامع بيان العلم و فضله وما ينبغي في روايته وحمله** للإمام أبي عمر و يوسف بن عبدالبر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣هـ ، تحقيق أبي الأشبال الزهيري ط : دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٢٨- **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)** لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتوفى سنة ٢٩٧هـ تحقيق وترقيم وشرح : أحمد محمد شاكر في الأجزاء الأولى وآخره بتحقيق كمال يوسف الحوت ، ط : دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ، الطبعة الأولى بتاريخ ١٤٠٨هـ.

٢٩- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه – **(صحيح البخاري)**- لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ ط:دار السلام بالنشر والتوزيع بالرياض ،ط:الأولى ،١٤١٧هـ.

٣٠- **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن** لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ ط مطبعة دار الكتب المصرية،ط: الثانية بتاريخ ١٣٧٣هـ ط:نشر دار الفكر بيروت – لبنان بتاريخ ١٤٠٧هـ،ط:مؤسسة الرسالة،تحقيق الدكتور عبد الله التركي.

٣١- **الجامع لشعب الإيمان** للحافظ أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ تحقيق د/عبد العلي عبد الحميد ط:مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض ط:الأولى سنة ١٤٢٣هـ، ط:الدار السلفية الهند سنة ١٤٠٦هـ.

٣٢- حياة الصحابة، تأليف الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ، تعليق الشيخ هشام البخاري، ط:المكتبة العصرية ببيروت،ط:الأولى ١٤١٥هـ

٣٣- خلق أفعال العباد للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ، معلومات الطبعة والتاريخ لا توجد.

٣٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ، وبهامشه تفسير ابن عباس رضي الله عنهما،ط:دار الكتب العلمية بيروت—لبنان، عدد وتاريخ الطبعة لا يوجد.

٣٥- ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح العلامة محمد الطاهر بن عاشور،نشر الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٦م، ط:مصنع الكتاب للشركة التونسية للتوزيع بتونس.

٣٦- الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ط دار الفكر، عدد وتاريخ ط:لا يوجد.

٣٧- السنن لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي المتوفى سنة ٢٧٥هـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط: المكتبة العصرية صيدا - بيروت، تاريخ وعدد الطبعة لا يوجد على النسخة.

٣٨- سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي المتوفى سنة ٢٥٥هـ تحقيق الشيخ محمد عبد العزيز الخالدي، ط : دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان ، الطبعة الأولى بتاريخ ١٤١٧هـ.

٣٩- السنن الكبرى للحافظ أحمد بن الحسين بن علي البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ ط: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،بتاريخ ١٤٢٠هـ.

٤٠- السنن الكبرى للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣هـ، تحقيق الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد حسن كسروي، ط:دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ.

٤١- سير أعلام النبلاء للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى ٧٤٨هـ ط/ مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٤٢- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا،وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط:دار المعرفة، تاريخ الطبع: لا يوجد.

٤٣- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني المصري المتوفى ١١٢٢هـ ط/ دار الكتب العلمية سنة ١٤١١هـ .

٤٤- شرح صحيح مسلم للإمام للنووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ ط : المطبعة المصرية وكتبتها ، عدد وتاريخ الطبعة لا يوجد على النسخة.

٤٥- شرح نخبة الفكر كلاهما للحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ تعليق محمد غياث الصباغ، مراجعة د/ الشيخ محمد عوض، نشر مؤسسة العرفان بيروت، توزيع مكتبة الغزالي بدمشق، ط: الثانية ١٤١٠هـ.

٤٦- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ، ط دار الكتب العلمية بيروت، ط الثانية ١٤١٣هـ.

٤٧- طبقات ا لمفسرين تصنيف الحافظ شمس الدين محمد بن علي الداودي المتوفى سنة ٩٤٥هـ. ط: دار الكتب العلمية، ط: الأولى ١٤٠٣هـ.

٤٨- العجاب في بيان الأسباب للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ تحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس ، ط: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، بالسعودية ، الطبعة الأولى بتاريخ ١٤١٨هـ.

٤٩- فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ، ط : المكتبة السلفية ، الطبعة الرابعة بتاريخ ١٤٠٨هـ ، حققه محب الدين الخطيب ، ورقم كتبه وأبوابه محمد فؤاد عبد الباقي ، وأشرف على طبعه : قصي محب الدين الخطيب .

٥٠- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ، ط:شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر،ط: الثانية بتاريخ ١٣٨٢هـ.

٥١- فضائل القرآن للإمام أبي عبيدة القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ ، ط/ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ .

٥٢- **الفيض العميم في معنى القرآن العظيم** لأحمد بن منعم الدمنهوري دراسة وتحقيق محمد سيدي عبد القادر رسالة ماجستير من قسم التفسير بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٥٣- **في ظلال القرآن** لسيد قطب، ط:دار الشروق،ط: التاسعة ١٤٠٠هـ.

٥٤- **القاموس المحيط** للمؤلف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، المتوفى سنة ٨١٧هـ ، طبعة الثانية ١٣٧١هـ .

٥٥- **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار** للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥هـ تحقيق محمد عبد السلام شاهين ، ط: دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى بتاريخ ١٤١٦هـ .

٥٦- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** للإمام محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ، بذيله أربعة كتب : الأول : الانتصاف لأحمد بن المنير، الثاني:الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر، والثالث:حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على الكشاف، والرابع: مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان، تحقيق مصطفى حسين أحمد، ط:ونشر دار الريان للتراث ، ط: الثالثة بتاريخ ١٤٠٧هـ.

٥٧- **كنز العمال** لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين البرهان فوري الهندي ، ط: مؤسسة الرسالة ط: الخامسة .

٥٨- **مبادئ أساسية لفهم القرآن** لأبي الأعلى المودودي ، تعريب خليل أحمد الحامدي ، ط: دار العلم للطباعة والنشر ، كويت ، ١٣٩١هـ.

٥٩- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧هـ ، دار الكتاب بيروت ط: الثانية ١٩٦٧م.

٦٠- **مجموع فتاوى لشيخ الإسلام بن تيمية** ط/ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف سنة ١٤١٦هـ .

٦١- **محاسن التأويل** لمحمد جمال الدين القاسمي ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

٦٢- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦هـ ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، ط: دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٦٣- **مختار الصحاح** لزين الدين محمد بن عبد القادر الرازي المتوفى سنة ٦٦٦هـ نشر دار البصائر مؤسسة الرسالة تحقيق حمزة فتح الله، ومحمد خاطر تاريخ الطبع١٤٠٧هـ.

٦٤- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ تحقيق محمد حامد الفقي ط : مكتبة السنة المحمدية.

٦٥- **مدارك التنزيل وحقائق التأويل** لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، ط: دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه.

٦٦- **المستدرك على الصحيحين** لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥هـ ط: دار الكتب العلمية ط١ سنة ١٤١١هـ.

٦٧- **المسند** (**مسند أحمد**) الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ ط دار صادر بيروت ، تاريخ وعدد الطبعة لا يوجد على النسخة، وط : مؤسسة الرسالة تحقيق شعيب الأرنؤوط ورفاقه.

٦٨- **معالم التنزيل (تفسير البغوي)** للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة ٥١٦هـ تحقيق محمد عبد الله النمر ورفاقه طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض ١٤٠٩هـ.

٦٩- **معاني القرآن** لأبي زكريا يحي بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ،ط:عالم الكتب بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة بتاريخ ١٤٠١هـ.

٧٠- **معاني القرآن وإعرابه** لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج المتوفى سنة ٣١١هـ ط:عالم الكتب بيروت لبنان ،ط: الأولى ١٤٠٨هـ .

٧١- **المعجم الكبير** للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحد الطبراني المتوفى ٣٦٠هـ ، ط/ الدار العربية للطباعة بغداد تاريخ ١٣٩٨هـ .

٧٢- **معجم المقاييس في اللغة** لأبي الحسين أحمد بن فارس ابن زكريا المتوفى سنة ١٣٩٥هـ تحقيق شهاب الدين أبو عمرو طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٧٣- **معرفة علوم الحديث** للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥هـ.

٧٤- **المفردات في غريب القرآن** لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ تحقيق محمد سيد الكيلاني ، ط: دار المعرفة بيروت – لبنان ، عدد وتاريخ الطبعة لا يوجد على النسخة.

٧٥- **مقدمة في أصول التفسير** لشيخ الإسلام ابن تيمية مع شرحها للشيخ محمد بن صالح العثيمين ط: دار الوطن بالرياض ط١ سنة ١٤١٥هـ.

٧٦- **الموطأ** للإمام مالك بن أنس الأصبحي المتوفى سنة ١٧٩هـ تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ط: دار إحياء الكتب العربية ط عيسى البابي الحلبي وشركاه توزيع دار الكتب العلمية بيروت – لبنان تاريخ الطبع لا يوجد على النسخة.

٧٧- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** للحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، عدد وتاريخ الطبعة لا يوجد على النسخة.

٧٨- **نظرات في القرآن** للشيخ محمد الغزالي ط: شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع إشراف داليا محمد إبراهيم ، ط: السادسة ٢٠٠٥م.

٧٩- **النكت والعيون (تفسير الماوردي)** لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري المتوفى سنة ٤٥٠هـ ، مراجعة وتعليق السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم ط :دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ومؤسسة الكتب الثقافية بيروت – لبنان تاريخ الطبع : لا يوجد على النسخة.

٨٠- **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأبرار** لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ، ط:شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الثانية بتاريخ ١٣٨٢هـ. الطبعة الأخيرة ، تاريخ الطبع لا يوجد على النسخة.

٨١- **هكذا فلنحفظ القرآن (الكلمات الحسان فيما يعين على حفظ والانتفاع بالقرآن)** لمحمد مصطفى شعيب، ط: دار نور المكتبات ، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ.

فهرس الموضوعات

الملخص ٧٧

المقدمة ٧٨

الفصل الأول: الوسائل الحسية ومكانتها في فهم القرآن الكريم ٨٤

المبحث الأول: سلامة أدوات المعرفة ٨٤

المطلب الأول: سلامة حاسة السمع (الأذن) ٨٤

المطلب الثاني : سلامة حاسة النظر (العين) ٩٢

المطلب الثالث: سلامة حاسة العقل (القلب) ٩٥

المبحث الثاني : بذل أقصى الطاقة في إعمال الذهن (العصف الذهني) ١٠٢

المطلب الأول : التفكر ١٠٣

المطلب الثاني : التذكر ١٠٥

المطلب الثالث: التدبر ١٠٦

المبحث الثالث : البعد عن الشواغل وتحري أوقات الهدوء ١١٢

المبحث الرابع : معرفة اللغة العربية ١١٥

المبحث الخامس : معرفة واقع البشرية وقت نزول القرآن ١١٦

المبحث السادس : الرجوع إلى القرآن الكريم ١٢٠

المبحث السابع : الرجوع إلى صحيح السنة ١٢١

المبحث الثامن : التشجيع بالحوافز المادية والمعنوية ١٢٣

المبحث التاسع : التدرج ١٢٩

المبحث العاشر : العمل بالقرآن ١٣٢

الفصل الثاني : الوسائل المعنوية ١٣٥

المبحث الأول: الإيمان ١٣٥

المبحث الثاني: التقوى ١٣٨

المبحث الثالث: استشعار عظمة الخطاب ١٤٠

المبحث الرابع : استشعار خصوصية الخطاب ١٤٤

المبحث الخامس : استشعار شمول القرآن ١٤٨

الخاتـــمة ١٥٢

فهرس المصادر والمراجع ١٥٤